أوراق المجهول

داود سلمان الشويلي

اسم المنجز : أوراق المجهول

الجنس الأدبي : رواية

الطبعة الأولى : لسنة ٢٠١٩

القياس : ١٤ * ٢١سم

عدد الصفحات : (١٤٦)

عدد النسخ : ٣٠٠

تصميم الغلاف (ذو الفقار داود سلمان الشويلي)

~~~~~~

تنفيذ الانجاز...طباعة وتصميم (المتن) العراق ــ بغداد   هاتف_٠٧٧٠٧٠٧٩١٩٠ (واتساب و فايبر)

فيس بوك _ amtm_a@yahoo.com   جيميل _ aaaaaa19721@gmail.com

Graphic design and printing by Al-Maten house for printing and publishing

Contact phone number

What's up and Viber __ 07707079190

~~~~~~

داود سلمان الشويلي

في

أوراق المجهول

رواية ٢٠١٩

الطبعة الاولى ٢٠١٩

((كثيرون هم الذين اتخذوا من الاوهام

والمعجزات الزائفة وخداع البشر تجارة لهم .))

دافنشي

(شفرة دافنشي)

ورقة خارجية:

الكتابة ألم ... مخاض ولادة... بحث عن إبرة في كومة قش تقع في الغرفة الخلفية لبيت ريفي ...

هذا ما كنت أقرأه بداية ولوجي عالم الكتابة الأدبية ولم أصدقه ، كنت أضحك من هذا القول ، إلا أن ممارسة الكتابة جعلتني أصدق ذلك .

وكنت أتساءل :هل صحيح أن أي كاتب أصدر مجموعات قصصية أو روايات ، عندما يريد أن يكتب عملاً جديداً – سمه ما شئت – يجلس أول ما يجلس أمام الاوراق البيض – كمن يجلس بين فخذي عذراء أول مرة ـ والقلم بيده – في زمننا الحاضر يجلس أمام لوحة مفاتيح الحاسوب وليس بيديه شيء ، وانما أمامه شاشة ١٧ بوصة بيضاء اللون – ويترك تفكيره يسيح بين أناس يعرفهم أو لا يعرفهم ، وفي أماكن مجهولة عنه ، وفي زمن ليس زمنه ، ثم يبدأ بنبش الذاكرة عمن مر به من أناس وأحداث ليتوافق بين ما في الذاكرة و بين ما سيسطره على الورق .

ها أنا أنبش ذاكرتي ، لا لانني لا أعرف عمن أكتب ، لان جميع الناس الذين سأكتب عنهم ، وكل الاماكن التي سيرتادها هذا القلم وهو يترك آثاره على الورق، وكذلك الأزمنه التي ستجمع أولئك الناس بهذا المكان أو ذاك ، قد تم تدوينهم في ذاكرتي الورقية ، أي سجلي الخاص ، بعد أن خمرته الذاكرة في الأعماق ولم يعد بمقدوري إيجاد منفذ للخروج من هذه الذاكرة العصية اذ بدأت كالسائل اللزج تنسكب على الورقة البيضاء، أو من خلال أصابعي الضاربة على لوحة مفاتيح الحاسوب لترتسم كلماتاً سود على الورقة الإفتراضية على الشاشة.

لقد حفرت أصابعي ، وهي تحرك القلم على الورقة البيضاء ، أو هي تضرب مفاتيح الحروف ، اثاراً لم تمحها السنين .

قلت : وها أنا أنبش ذاكرتي ، لا لانني أشعر بما خزنته كالنقوش المنحوتة ، و إنما لأختار ما أريد أن أختاره من الحوادث والأحداث التي جرت في وقتها وفي مكانها والتي وجدت لها قلماً وورقة من هذا السجل لتتسطر عليه ، ولانني أعرف – كما أزعم أنني واحد من كتاب الرواية الذين يعتمد قوانين ما إستخلصه أساطين الرواية ومن ثم نقادها – ان الواقع الطبيعي ليس هو الواقع على الورق ،أي أن الواقع الحقيقي ليس هو الواقع الافتراضي المسطر على الورق، و ان ما نريد أن نسطره مأخوذ من الواقع ، لا ولن يكون كالصورة الفوتغرافية التي تجمد كل شيء ، الناس والاشياء والزمان والمكان ، بل هو تسطير لكل ذلك ، بشرط أن يبقى متحركا نامياً متطوراً، ونشم منه عند القراءة رائحة أجسادنا عندما ينز منها العرق ، ورائحة الغبار والأشياء الأخرى ونتذوق عذوبة الماء العذب ، وملوحة الماء المالح ، وتتراءى لعيوننا الوان قوس قزح ، وتصدم أسماعنا صرخات من يصرخ ، و نحيب من ينتحب ، وضحكة من يضحك ، وفوق كل ذلك علينا أن نجعل أحاسيسنا ومشاعرنا تلتقط كل الأحاسيس والمشاعر التي سطرها القلم على الورق ، أقصد ظهور أثر ضربات أصابعنا على لوحة مفاتيح الحاسوب أمامنا على الشاشة .

هكذا فهمت كتابة الرواية ، أما سجلي فهو سجل للتاريخ ليس إلا ، وهذا ما تعلمته من دراستي الجامعية ، فهل أوفق في إيجاد المعادلة الكتابية بين سجلي وبين أوراقي الجديدة هذه ان كانت أوراقا حقيقية مصنوعة من عجينة القطن أو البردي أو...أو... ، أو أوراقا ضوئية إفتراضية مرسومة على شاشة الحاسوب أمامي ؟

أشعر بأني أعرف كل شيء عما حدث ، وهذه المعرفة تجعلني أعيش والسيف مسلط على رأسي ، كمن يطارده شبح غير مرئي في دروب مظلمة كالمتاهات .

لا أريد من هذه الورقة التي هي غريبة عن أوراق المجهول أن تكون (فرماناً أو دستوراً) للتنظير الروائي، ولا هي ميداناً لفلسفة بيزنطية لا تغني ولا تسمن، أو ترديد لمقولات سبق أن قيلت أو مقولات سوف تقال ، إلا انني في هذه الورقة حذفت الكثير مما سجلته في السجل ، وجمّلت الباقي منه ، (لأنني لا أكذب و إنما أجمل)(*) دون أن أضيف شيئاً من (عندياتي) ، فهل وفقت لذلك ؟ أيها القدر إشهد أنني لا أكذب ، وإنما كنت فيما كتبت مجملاً .

واذا كانت الأعمال الأدبية تطبع على الورق لتنشر بين الناس ليقرأوها ، فروايتي هذه – كما أظن – سيتم طبعها على الورق عند عودة إبن الشيخ الكبير من غربته .

***

كنت صبياً ، لي أختان وأخ أصغر مني ، وكانت جدتي لأمي تزورنا مرة في السنة ، اذ كانت تسكن في مدينة أخرى ، وكنا في الليل وبعد تناول العشاء ، نتجمع حولها ، كانت تحكي لنا بعض الحكايات ، خاصة وأنها كانت تزورنا في فصل الشتاء البارد الممطر ، كنا نتحلق حولها ، ومنقلة (*)الفحم المتأجج حرارة بيننا، فيما كانت والدتي تجلس قرب والدي الذي راح يتسمع للأخبار من محطات الراديو الذي يعمل على البطارية ذات الحجم الكبير ، وهي أيضاً تستمع لحكايات أمها ، وتضحك حين نضحك وتشعر بالخوف حين نشعر به ، وكان أخي الذي يصغرني يزحف نحو حضنها ليغفو بعد حين ، هكذا كنا عندما تزورنا جدتي .

في إحدى زياراتها ، وكان الفصل شتاء ، والمطر ما يزل منذ الصباح ينزل علينا مدراراً ، فلم يترك الخيار لوالدي أن يخرج صباحاً الى عمله ، ولا لأمي لتخرج ضحى ذلك اليوم للتسوق كنا محجوزين داخل غرفتنا الوحيدة ، فيما حوش دارنا غير المبلط قد أصبح قطعة من الوحل ، وراح "مرزيب" سطح غرفتنا يسقط منه ماء المطر كشلالٍ كبير ، وكنا نعتقد أن هناك أشخاصاً في السماء يدحرجون براميلٍ مملوءة بالماء يسكب منها على صفحة السماء المثقبة كمصفى "التمن" المسلوق بالماء فينزل علينا مطراً ، ونسمع الرعد عند حركة البراميل ، ونرى الوميض عند تصادمها ، في ذلك الجو الممطر سألت أمي أمها أن تقص علينا بعض حكاياتها . فبدأت الجدة بعد البسملة والسلام على الأئمة بسرد حكايتها ، فيما بدأنا نحن بالتحلق حولها، قالت :

- (أكو ماكو ،...)(*)

***

الورقة الأولى:

ها هو المضيف الكبير المبني من القصب والبواري(*) ينتصب شامخاً وهو يسد الأفق أمام ناظريّ كأنه طائر خرافي هبط دون استئذان ، وليس لي حيلة بطرده من المساحة التي يقف عليها فرأيتني أبحث عن بصيص ضوء لترى عينيّ الأشياء كما هي خاصة تلك التي تحدث داخله .

كانت الأرض السبخة التي أمام بابه الواطئ قد امتلأت بالناس وجوه ملأ تجاعيدها الحزن والألم بعد أن لوحتها الشمس الجنوبية بوهجها اللاهب، وقد حشُوا أجسادهم بملابس بألوان وأشكال مختلفة ، كان صمتهم كصمت القبور تحت شمس لاهبة كزجاج ذائب ، وكان همس من يريد أن يخبر القريب منه بشيء هو الوسيلة الوحيدة ذاك الوقت ، فترى الشفاه المتحركة بإضطراب دون أن تسمع لحركتها نأمة ، فيما راحت أصوات النساء تأتي من داخل الدار الكبيرة ذات الباب الخشبي الكبير المطلي باللون الصاجي ، وقد إعتلى قرص الشمس الحامي عليها، محملة بكل انين وصراخ نساء العالم .

كانت رؤوس الرجال المتجمهرين أمام الباب الواطئ للمضيف الكبير بلا أية حماية من اتون الشمس سوى حماية القدر، ترفرف من فوقها الرايات المنصوبة في أماكن متفرقة بألوان عديدة ، وقد امتلأت قماشاتها بأيات قرآنية وأقوال نبوية وكلمات تعلن عن عائدية كل راية الى العشيرة التي تمثلها.

كنت أتحين الفرص للدخول الى المضيف الكبير . وكنت أحسد الداخلين والخارجين منه حاملين الصواني ذات اللون الفضي التي ورثها الشيخ الكبير من والده الشيخ الكبير العاشر والتي ورثها الاخير بدوره من سلالة الشيوخ الكبار لقبيلتنا ، وقد

رصفت عليها إستكانات الشاي ذات الأطر الذهبية ، و كان والدي رئيس عشيرتنا وعمي وكيله من المترددين على المضيف الكبير وهم يستقبلون الزائرين مرحبين أو مودعين، فيما كان صاحبي الشاب راضي دائم التلفت نحو باب الدار الكبيرة الصاجية اللون علّه يرى " فوزه" وهي خارجة أو داخلة منه تنقل شيئاً ما .

كل ذلك قد حدث قبل سنوات بعيدة ، السنوات التي فيها كان نهر قبيلتنا يفيض كل عام ، عندما إنتشر خبر إحتضار الشيخ الكبير الحادي عشر من سلالة الشيوخ العظام لقبيلتنا .

كان الشيخ الكبير هو صاحب المضيف الكبير، و صاحب تلك الدار الكبيرة . هذان الصرحان الكبيران ورثهما كما مشيخة القبيلة والصواني الفضية من والده الشيخ الكبير والذي بدوره ورثهما من والده الذي ورثهما من أسلافه الشيوخ الكبار الثمان الذين نحن أبناؤهم ، وهو كبير قبيلتنا بعشائرها وأفخاذها وأسلافها الممتدة على الارض الواسعة .

أكتب هذه الكلمات لا لأنني واحد من الذين يعرفون الكتابة والقراءة ، فقد إنتشر أستخدام القلم والورق بين أبناء القبيلة بفضل إنتشار المدارس ، وليس لأنني قد أكملت دراستي الجامعية في قسم التاريخ ، لأن جامعات بغداد والكثير من جامعات مدن العراق تخرج سنويا الآلاف من أبناء العراق ، ولكن الذي حدى بي الى أن أكتب هذه الاوراق هو الفراق الذي حدث بين والدي وأخيه والد خيرية خطيبتي و حبيبتي التي ربطني بها منذ ولادتها عهد زواج الأهل ، وكبر حبي لها كما كبرت أنا وكبرت هي ، ولعبت معها كما لعبت هي معي فقط من دون بنات عشيرتنا ، ودون أطفال وصبيان وشباب القرية ... كانت تعرف أنني لها وحدها ... وكنت أعرف أنها لي وحدي...وكانت تطرد أية فتاة تقترب مني

حتى لو كانت أختها التي تصغرها بسنوات... كانت لي كالقدر وكنت لها القدر بعينه .

لا أعرف من الذي ذكّر والدي بي تلك اللحظة ، هل هو الهام رباني كالالهام الذي جاء لأم موسى أن ترمي طفلها في اليَم ، أم كانت رغبة منه في أن يرى ابنه البكر وجه الشيخ الكبير ساعة الإحتضار، والتبرك بتقبيل قدميه قبل الممات ؟

قلت مجيباً على تساؤلي مع نفسي وأنا أشق طريقي بين جموع المحتشدين الذين كانوا تلك اللحظة يهزجون ويتصايحون بشتى الهوسات ، راكضين لإستقبال أبناء إحدى عشائر قبيلتنا الساكنين في منطقة بعيدة:

- ربما .

إشتد دكِ الارض بالأقدام أمام باب المضيف الكبير، كانوا كمن يتجرع صمت القبور بالهوسات ، انها (عرضة)(*) كبيرة وصاخبة، في تلك اللحظة شق صوت والدي الفضاء وهو ينادي بإسمي ويدعوني للدخول الى المضيف الكبير.

كان المضيف الكبير على سعته مليئاً بالعمائم والياشماغات والعِقل وبالرؤوس الحاسرة . كانت الوان العمائم وكبرها تشي عمن يلبسها ، أما العِقال الذهبي المقصب والياشماغ اللندنيان النفيسان اللذان جيء بهما من لندن خصيصا للشيخ الكبير، والمصحف بغلافه الجلدي الداكن اللون ، فقد إرتاحوا جميعا على محمل خشبي مغطى بقطعة قماش خضراء من القطيفة المخملية ، وقد تصدّر بكل هدوء وبذخ الركن المواجه لباب المضيف الكبير بحيث يصدم مرآه من يدخله، فيما كانت هناك صينية مُلأت بالشموع الوهاجة واوراق نبتة الآس.

علقت على الجدار الصادم لمن يدخل المضيف الكبير المبني من القصب والبواري عشرة صور فوتغرافية ، منها صورة ملونة للشيخ الكبير المحتضر ، وصورتين بالأبيض والأسود لأبي الشيخ الممدد وجده ، وثلاث صور أخذت بكاميرات التصوير الشمسي لأجداد الشيخ الكبير، أما الصور الأخرى فكانت عبارة عن لوحات مرسومة لأسلاف الشيخ الممدد.

الكل ينتظر ساعة الخلاص . أما قيام الشيخ الكبير من فراش الموت بعد أن يتجاوزه عزرائيل الى شخص آخر ، كما قام سيدنا المسيح ، أو أن يختاره اللّه الى جواره كما يختار خلقه . هذا ما فكرت به تلك اللحظة وأنا الج باب المضيف الكبير الواطئ بحيث يتطأطأ رأس داخله ، فيما كان الشيخ الكبير يتلو بصوت واهن لا يسمعه الجالس بالقرب منه ، بخشوع بان على صفحة وجهه الأصفر- كما خمنت ساعتها - آيات من القرآن . أما تفكيره – كما خمنت أيضاً- فقد كان مشغولاً بتأخر قاضي المحكمة عن الحضور، في الوقت الذي كان هو يستعجل الرحيل الى المكان البعيد .

كانت الرؤوس المغطاة بالعمائم السود والبيض وبالياشماغات والعقل ، والرؤوس الحاسرة منكسة وكأنها تبحث عن شيء فقدته في المساحة الصغيرة التي تركت بين الجالسين ، كانوا بجلوسهم ذاك كمن على رأسه الطير مرفرفاً بشيء مستطير ولا يريدون المجازفة بأن يرى الطير وجه أحدهم . كان بعضهم منكس الرأس بأجفان مثقلة من سهر الليالي ، فيما البعض إنشغلوا بأنفسهم عن كل شيء ، و الصمت يرين عليهم ، صَمْتُ مقبرة قديمة وقت ظهيرة يوم قائظ ، ورؤية الأشياء صعبة في ضوء المضيف الكبير الذاوي كفانوس والدتي ، فيما رائحة البخور النفاذة العابقة تطرد رائحة الاحتضار.

فكرت بذلك وأنا أسير خلف والدي شاقا طريقي بصعوبة من بين حشود الجالسين متجنبا السقوط ، فقد منعت العتمة عينيّ رؤية الاشياء أول وهله حتى تعودتا عليها.

وصلت الى جسد الشيخ الكبير المتدثر ببطانية زاهية الألوان ... أدار والدي رأسه نحوي وقال بصوت حاول أن يكون مسموعا :

- تقدم ، قبّل أقدام الشيخ الكبير .

لم أفاجأ بطلبه ، فقد كانت تلك أمنية لي كثيرا ما رغبت بتحقيقها منذ أن نام الشيخ الكبير على هذا الفراش .

بعد أن لثمت قدميّ الشيخ الكبير الباردتين ، سحبني أحد المعممين مرددا بصوت زاجر:

- كفى .

نهضت ، فجرني والدي من يدي وقال بحدة:

- هيا أخرج .

عندها شعرت بحركة غير إعتيادية في المضيف الكبير وأنا أتجه الى بابه الذي انسد بجسد لحيم ، فتفرق الجالسون كسكين حادة مرت في منتصف قالب كيك . عرفت فيما بعد انه جسد القاضي السمين كأنه جسد ثور، كان يشخر أثناء تنفسه ، فيما وجهه اللحيم قد احمر، والعرق ينز منه وكأننا في شهر تموز، ولا يسعفه مسحه بالمنديل الأبيض الذي كان بين يديه اللحيمتين .

كنت قد غيرت وجهة سيري ، كان ذلك بسبب دفعة وجهت لي من أحد الواقفين داخل المضيف الكبير، دخل القاضي وهو ينوء تحت ثقل جسمه اللحيم ، وعنقه المحشورة بين كتفيه

وقد ملأ شخيره سكون المضيف الكبير، فيما كان الشيخ الكبير ينوء تحت ثقل الانتظار ، و لم يسمع لصوته نأمة واحدة .

ترادفت الدفعات الى ظهري حتى وجدت نفسي خارج المضيف الكبير بين حشود الناس الواقفين الذين عادوا الى صمتهم ، وأنا أتنفس الهواء المشبع بغبار سبخ الأرض الذي تطاير من تحت أقدام الناس الذين كانوا يدقون الأرض وأصواتهم تملأ الفضاء بالهوسات اثناء العرضة.

***

الورقة الثانية :

تغير مزاج السماء منذ طلوع أول خيوط الشمس الصفراء ... إذ بدت عندما نهضت من نومي مكفهرة ، كئيبة ، والغيوم تملأ صفحتها .

قالت أمي بعد أن صعّدت نظرها الى السماء:

ـ انها غيوم غير مطارة تنذر بحرارة عالية .

فيما قال أبي وهو يزمع العودة الى المضيف الكبير الذي تركه قبل أقل من ساعة :

ـ اللهم سترك ... اللهم لا نسألك رد القضاء وانما نسألك اللطف بنا.

مر سرب من الغربان ضحى ذلك اليوم في سماء أرض القبيلة فوق رؤوس الناس الذين امتلأت بهم الساحة الترابية السبخة التي ينفتح عليها باب المضيف الواطئ . كان صوت نعيق الغربان يملأ السماء في اللحظة التي تعالى فيها صوت النحيب الرجالي الذي تعالى من داخل المضيف الكبير، فيما كانت الشمس تحاول الاقتراب الى كبد السماء ، والجو كان وخماً ، والهواء ساكناً ثقيلاً كأنه مصنوع من رصاص .

مات الشيخ الكبير بعد يوم من مرور النجم المذنب من شرق السماء الى غربها ليلة البارحة . مات بعد ضحى ذلك اليوم الخريفي في تلك السنة التي كنت فيها أنا وصديقي راضي طالبين في الصف المنتهي في الجامعة ، غير أن الحشد الرجالي داخل وخارج المضيف الكبير تلك اللحظة لم يصدقوا موته ، حتى راح بعضهم ينهر القائلين بذلك ويمنع أصحاب البنادق المصوبة – وما أكثرها ـ الى كبد السماء من رمي اطلاقاتهم لإعلام العشائر

والقبائل الأخرى، وراح البعض يدخل المضيف الكبير ويخرج منه ليؤكد للناس المذهولين في الخارج انه حي يرزق . إلا ان الشيء الأكيد هو أن الشيخ الكبير قد مات بعد أن كتب القاضي ما أوصى به ، ويا هول ما أوصى به .

خرج والدي حاسر الرأس وصاح بالجموع المصدقة وغير المصدقة بموت الشيخ : ـ لقد انتقل الشيخ الى جوار ربه ... يرحمه اللّه برحمته ... وتهاوى على الأرض باكياً ... وحث على رأسه بعض سبخ الأرض وترابها . عندها صدق الحشد بموت الشيخ الكبير .

كان موت الشيخ الكبير هو الحقيقة التي ستجر وراءها حقائقاً أخرى .

أخبرني والدي ، وكأنه يخبرني الآن ، بعد أن تخرجت من الجامعة ونسبت مدرساً لمادة التاريخ في المدرسة المتوسطة الوحيدة في قريتنا بما حدث ذلك اليوم داخل المضيف الكبير الذي خرجت منه دفعاً وقتها ، قال لي أشياء يشيب لها رأس الصبي ، أشياء دفعت بجموع قبيلتنا الى الإنقسام الذي خلف العداء والذي من جرائه خسرت حبيبتي وخطيبتي وابنة عمي.

أخبرني والدي وكأنه يفشي سراً خطيراً لايعرف به أحد غيره ، وهذا صحيح ، لأن والدي كان ثاني إثنين في المضيف يعرفون بما دار بين الشيخ الكبير المحتضر والقاضي لحيم الجسم الذي أجلسوه على كرسي جاءت به حاشيته من دار القضاء الحكومي، كان أبي أحدهم وهو الكبير بينهم والثاني شيخ سلف العماريين الذي حشر نفسه دون أستئذان على الرغم من أننا – كما يقول والدي ـ لم نكن في ذلك الوقت في حالة من يعطي الاستئذان لأحد، ومن منا المخول بذلك؟ – طرح السؤال ولم يجب عنه ـ وكل الحاضرين هم سادة(*) ورجال دين ورؤساء عشائر وأفخاذ وأسلاف قبيلتنا ؟

وها أنا أنقل عن لسانه ما قاله لي والدي و نحن نجلس وحدنا في غرفة الخطار .(*)

قال وقد تغضنت صفحة وجهه:

ـ عندما جلس القاضي على كرسيه الذي جاء به رجاله ، جفف وجهه بمنديل أبيض ما تصبب على صدغيه وخديه من العرق الذي كان ينز من صفحة وجهه الحمراء اللحيمة ، ثم شخر أكثر من مرة ، بعدها تكلم ... قال موجهاً كلامه للشيخ الكبير المحتضر :

ـ ها شيخ... كيف ترى نفسك ؟

أجابه الشيخ الممدد جسده تحت الدثار السميك بصوت واهن :

ـ أنا بين يدي الرحمن الرحيم .

رد القاضي الذي لمعت بشرته الحمراء اللحيمة تحت تصبب العرق بصوت شخيره الذي يصدم الآذان:

ـ ونِعم باللّه .

ثم ، وكأنه يريد أن يخرج بسرعة من المضيف ، وجوّه الخانق المتلئ برائحة الاحتظار ، تابع قائلاً :

ـ ها شيخ ... بماذا توصي ؟

عندما وصل والدي الى هذه الفقرة من حوار القاضي مع الشيخ الكبير الذي بين يدي الرحمن الرحيم تأوه ، وتأسف كثيراً ضارباً كفيه الواحدة بالأخرى، ثم تابع ناقلاً لي ما حدث وقتها في المضيف الكبير بين الشيخ الكبير وبين القاضي الجالس على كرسيه .

قال والدي :

ـ قال الشيخ الكبير: أوصي بما تركته الى أمي .

ولاذ والدي بالصمت ، وقد رأيت اكثر من قطرة دمع تنزل من عينيه وتجري على خديه المتغضنتين ، فيما راح نشيجة يصل الى اذنيّ بصوت خفيض وكأنه يصدر من مكان بعيد .

تركته يبكي صاحبه الشيخ الكبير بعد هذه السنوات التي مضت ... فقد زامله أكثر سنوات عمره ... وهو – كما كان يقول لي دائماً – من نسل الشيوخ العظام لقبيلتنا، وانه يحترمه و يحبة أكثر من أولاده ، كما قال عند وفاته الى من كان يجلس بالقرب منه .

مسح عينيه بكُم دشداشته ، وراح يتابع ما بدأه :

ـ عندما أوصى الشيخ الكبير رحمه الله بتركته الى والدته ، سأله القاضي :

ـ شيخ ... ومشيخة القبيلة؟

ولاذ والدي مرة أخرى بالصمت ، كمن إشتعل فيه فتيل الذاكرة ، وأيقظت مكامن حزن كان يظن أنها قد ماتت ، الا انه لم ينشج ، ولم تسقط من عينيه دمعة واحدة ، فإحترمت صمته ، وانتظرت اللحظة التي يكمل فيها سرد أحداث ما حدث في المضيف الكبير وقتذاك .

وبعد صمت غير طويل كانت فيه نظرات والدي تائهة بين نقاط عديدة على جدران الغرفة الجالسين فيها ، قال والدي متابعا :

ـ لم يجب الشيخ الكبير ، فردد القاضي سؤاله أكثر من مرة عندها وضع اخوه " نهر" الذي جاء مسرعا حيث أشار له القاضي أذنه على صدره يتنصت الى دقات قلبه ، وبعد لحظات قال:

ـ الى رحمة الله ـ وأكد ـ انتقل الى رحمة الله .

صعد الى ملكوت الله ، وروحة غير المتحررة من آثار المشيخة التي أخذها معه، وترك مالها وأرضها لوالدته فقط .

عندها جاءنا نحن الواقفون خارج المضيف الكبير عويل و نحيب الرجال ممن كان داخله ، فسَرت عدوى النياح والعويل الينا، ثم تعالت أصوات عويل و نحيب النساء من داخل الدار الكبيرة وكأنهن ينتظرن وفاة الشيخ الكبير على أحر من الجمر – وحتماً- انهن قد نزعن فوَطهن(*) ، وحللن شعور رؤوسهن ومزقن جيوب أثوابهن ، ورحن يلطمن ويردحن على شيخ قبيلتهن الكبير ، فيما راحت العدادة (*) تطري لهن مآثره ، وتسمعهن كلاماً يفتت الصخر من شعر الرثاء بصوت أريد منه أن يستقطر آخر دمعة في العين ، وآخر آهة حرى في القلب ، وراحت مكبرات الصوت الموضوعة بإتقان على زوايا سطح الدار تنقل للرجال ذلك الشعر الذي يقطر ألماً على فقد الشيخ الكبير .

عندها غاب آخر غراب من سرب الغربان من صفحة السماء ذات الغيوم كالزجاج الذائب ، وبدأ وابل من المطر يهطل بكل قوة عمودياً على رؤوس من كانوا في الساحة لمدة ربع ساعة ، كان المطر دموع السماء كما قالت أمي بعد أيام.

كنت واقفاً مع الواقفين أمام باب المضيف الكبير التي ازدادت حركة الداخلين والخارجين منه ، وكان صديقي وكاتم أسراري مع ابنة عمي (راضي)– وبالمقابل كنت أنا كاتم أسراره مع حبيبته (فوزية)- يقف بجانبي، وعيناه لا تبرحان باب الدار الكبيرة علهما تريان حبيبته (فوزه) كما يحلو له أن يسميها.

تعالت الأهازيج والهوسات من الرجال، وراحت اجسادهم التي إنفتحت مساماتها وهي تدك الأرض تفرز ذلك السائل المالح مختلطاً بدموع السماء ، كانوا كأنهم ينتظرون هذه اللحظات ليدكوا فيها الارض السبخة واليابسة ، التي ارتوت لدقائق بدموع

السماء، بأقدامهم العارية ، ولو كان للارض لسان لصاحت منهم (الداد)(*) إلا انهم ، والأعلام ترفرف فوق رؤوسهم ، قد أخذتهم (الحمية) وحب الشيخ الكبير الى أن ينسوا أثقال ما كانوا يحملونه من مُر السنين ، وأصبح عندهم كل شيء هيناً بعد رحيل الشيخ الكبير دون أن يعلموا انه عندما سأله القاضي عن حاله قال: أنا بين يدي الرحمن الرحيم .

كانت الاعلام والرايات والبيارغ تخبر عن انتسابها ، حمر وخضر وسود وقد امتلأت بآيات قرآنية وكلمات تشير الى إسم العشيرة والقبيلة التي يرفرف فوق رؤوس أبنائها الذين يدكون الارض دكا وشفاههم تردد هوسات (*) من عرف عنه ترديد تلك الهوسات التي تمجد الشيخ الكبير، وفضل القبيلة بعلاقتها بآل البيت.

تركنا أنا وراضي الناس بما كانوا يفعلون ، وتحركنا بعيداً عنهم ، قريبا من باب الدار الكبيرة ، أنا لأحظي بلقاء ابنة عمي خيرية ، وراضي ليحظي بلقاء فوزه ، بعد أن كان الجميع مشغولاً بالهوسات ودك الارض وكأنهم في حشر عشائري لإخراج الماء من باطن الارض .

كانت هذه اللحظات فرصة لنا ، ولي خاصة بعد أن أصبحت خيرية خطيبتي رسمياً ، وقد اتفق والدها ووالدي ألا نلتقي ألا بعد الزواج ، أما راضي وفوزه فلم يعلم بقصة حبهما ولقاءاتهما السرية سواي وخيرية ، لأنهما كانا من عائلتين بينهما مشاحنات وبغضاء ونفور على الرغم من أن جديهما لأبيهما أبناء عمومة .

كانت خيرية ابنة عمي وابنة خالتي في الوقت نفسه ، فقد كان والدي ووالدها أخوة من أب وأم واحدة ، والاكثر من ذلك أنهما كانا توأمين للحاج سلمان ، فيما كانت أمي وأم حبيبتي وخطيبتي أخوات من أب وأم واحدة ، والأكثر من ذلك وهذا

الطريف في الأمر إنهن كن توأمين لبطن واحدة لزوجة الحاج سالم أخي الحاج سلمان والدي.

عندما جاء أبي وعمي الى الحياة كان جدي – والدهما – في الحجاز مع الشيخ الكبير- أب الشيخ الكبير الذي مات وهو بين يدي الرحمن الرحيم- يأدون فريضة الحج ، فقام عمهما – والد أمي وخالتي – برعايتهما حتى وصل جدي والشيخ الكبير الى أراضي القبيلة .

في اللحظة التي وطأت أقدامهما أرض المضيف الكبير، كانت القابلة العجوز للقبيلة مع زوجة الحاج سالم لتولدها ، وبعد أقل من دقيقة من وصول خبر وصول الحجاج تعالت هلاهل جدتي زوجة الحاج سلمان بمناسبة ولادة أختها، وقدوم المولودتين التوأمين الجديدتين.

جاء الخبر الى المضيف بالتوأم ، فصاح جدي الحاج سالم فرحاً وهو يوجه كلامه للشيخ الكبير :

- اشهد يا محفوظ (*) ان بناتي هدية الى أبناء أخي الحاج سلمان .

انتشر الخبر أولا في المضيف الكبير بين المهنئين بقدوم الحجاج ثم ساح كما يسيح الماء في أرض عطشى بين أبناء العشيرة ومن بعدها تناقلته ألسن من تعلم نقل الأخبار بين ناس العشائر والأفخاذ والأسلاف الأخرى ، وقد فتح وقتها الشيخ الكبير السجل الكبير الذي يسمونه " الشاهد" وسجل بتاريخه تلك الهدية التي شكر جدي الحاج سلمان أخيه الحاج سالم عليها ، و ختمه الشيخ الكبير بقوله بارك اللّه بكما وبأولادكما ليجعلهما اللّه من أنصار أهل البيت . وقال في هذه المناسبة شاعر القبيلة أبياتا شعرية ، تَرَدَدَ صداها في مضايف عشائر وأسلاف قبيلتنا .

هذا ما أخبرني به جدي الحاج سلمان قبل وفاته بأيام ، فيما أخبر جدي الآخر الحاج سالم خيرية بذلك ، وكأن هذه الأمور سراً تتناقله العائلة فيما بينها ولا ينقله سوى الجد الى الأحفاد ، على الرغم من أن الأمر كان معروفا للقاصي والداني ومن ضمنهما أنا وخيرية .

عندما ولدت قبل أيام من ولادة خيرية كان جدي الحاج سلمان وجدي الحاج سالم قد اتفقا على أن البنت التي ستلدها زوجة ابنه الثاني – الذي كان يسكن في دار عمه الحاج سالم ليكون بمثابة ولد له بعد أن حُرم الولد- ستكون لخيري ويسمونها خيرية وعندما سأله الحاج سالم كيف عرفت إنها بنت ؟ رد جدي الحاج سلمان: اسأل الشيخ الكبير ، عندها صدّق جدي الحاج سالم بما قيل وبارك المولودين – أنا والبنت التي ستولد – دون أن يعرف كيف عرف الشيخ الكبير بجنس المولود ، وأخبر الشيخ الكبير بذلك ، فطلب من الرجل الذي يخدمه أن يأتي بالشاهد ليسجل فيه الاتفاق .

***

الورقة الثالثة:

كنا نعود الى بيوتنا في الليل منهكي القوى ، أنا وأبي وأمي وأختي ، بعد أن يجهدنا العمل في مجلس فاتحة الشيخ الكبير ان كان ذلك في المضيف أنا و والدي ، أو كان ذلك في الدار الكبيرة بالنسبة لوالدتي وأختي ، إذ إمتد مجلس الفاتحة لأكثر من أسبوع وقد نحرت مئات الذبائح وصرفت العشرات من أكياس الرز والسكر والشاي ، وتكسرت المئات من الاستكانات الفارغة و المملوءة بالشاي والمواعين الصيني (*) لاصطدام أقدام الناس بها لشدة الزحام .

في اليوم الرابع من أيام الفاتحة تحينت الفرصة للاختلاء بخيرية – ابنة عمي وحبيبتي و خطيبتي – بمساعدة صديقي راضي الذي التقى صدفة وبعيداً عن أعين الناس بحبيبته فوزه ، وكنت أنا أقف ليس بعيداً عنهما ، إذ كنت أحاول أن أرد بعض الصبية عن مكان خلوتهما ، وعندما انتهيا من الخلوة عاد راضي وهو يحمل البشرى لي.

كنت على أحر من الجمر للقاء حبيبتي وخطيبتي ، إلا انه في الوقت نفسه كنت أريد أن أعرف كل شيء عما جرى و يجري داخل الدار الكبيرة بعد أن بدأت السُن الناس تنقل أشاعات عديدة. بعد أقل من ربع ساعة كنت أختلي بخيرية في المكان نفسه الذي كان يختلي به راضي بفوزه .

كانت أول ما فعلته خيريه أن رمت نفسها عليّ وراحت تقبلني القبلات ذاتها التي تعلمتها من الأفلام التي كنت أنا وراضي نشاهدها في سينمات بغداد بعد انتهاء دروسنا في الجامعة وأعلمها لها.

راحت تمتص شفتاي مصاً كأنها قطعة حلوى، فيما أنا لم أشاركها سوى قبلتين ومصتين من الشفاه ، حتى أن خامس أطرافي الذي بين بدايتي أفخاذي لم يتحرك قيد أنملة كالسابق تحت تأثير هذه المصات والقبلات ، أما تفكيري فقد كان منصباً على ما يحدث في الدار الكبيرة ، وعن صدق أو كذب الاشاعات.

انتبهت خيرية للقائي البارد معها ، وأخذت تمطرني بوابل من كلمات اللوم والعتب التي امتلأ بهما قاموس الصبايا المحبات ، بل راحت تلوم نفسها لأنها أتت اليّ بقدميها كالبهيمة ، وهمت بالخروج ، إلا انني أمسكت بها وصحت زاجراً:

ـ ألا تكفين عن ذلك ... لقد شبعت من القبلات ومص الشفاه ... اخبريني عما يحدث في الدار الكبيرة ؟

عندها نظرت لي شزرا ، وكمن صعقت بكلامي ، إستدارت غاضبة لتخرج من غرفة ماكنة سحب الماء التي كنا نختلي بها فأسرعت وأغلقت الباب ورحت أمطرها بوابل من القبل الباردة كالثلج ، اذ كنت أعرف أن القبل والمص سيُهَدّأ من ثورتها كلما غضبت مني في كل مرة ، إلا انني كنت مخطئاً ، لأنها لم تشاركني قبلاتي بعد أن شعرت ببرودتها ، أو انها عرفت أن ما أقوم به هو تهدئة لخواطرها ليس إلا ، فصحت بها ناهرا:

ـ كفى ... اخبريني عن أي شيء جرى في الدار الكبيرة ، وماذا فعلت النسوة التي جيء بهن من المدينة بسيارة القاضي ، ولماذا جيء بهن؟

عندها هدأ غضبها قليلاً ، وكمن يعرف كل شيء قالت :

ـ لن أخبرك ... لدي أسراراً لا يعرف بها سوى النساء .

ثم ضحكت بصوت عال وإنفلتت مني وفتحت باب الغرفة وخرجت والضحكة العالية كادت تفضحنا .

بقيت ساكناً لا أعرف بماذا أجيب على تساؤلات راضي الذي وصل اليّ مسرعاً ، كنت كمن يقف على حافة هاوية . كاد خروج خيرية من الغرفة يوقعني على الارض ، انها ما باتت تحبني وشعرت بأحشائي الداخلية تتمزق .

قلت لراضي بتوتر بان على كلماتي:

ـ لم تخبرني بشيء ... ثم تساءلت أو سألت راضي :

ـ هل انتهى حبها لي ؟

أجابني راضي :

ـ أترك هذه الافكار خارج رأسك.

وبعد لحظات تابع قوله كالواثق من كلامه :

ـ ابق هنا ، ستعود حتما ...

ثم قال:

ـ سأعود اليك .

وخرج .

بقيت والدوخة لفت رأسي كله ، كنت أحس برأسي كـ (الچبنة)[*] ، شيء إسفنجي ... هلام لا أستطيع السيطرة عليه . فيما كان جو غرفة ماكنة سحب الماء كالتنور الملتهب . كان العرق يتصبب من كل مسامات جسدي ، فيما النواح ما زال يتصاعد من الدار الكبيرة ، تساءلت مع نفسي:

- أتتركني ابنة عمي وحبيبتي وخطيبتي هكذا ؟ أين حبها لي ؟ أين ذهبت قبلاتها لي ؟ أين ذهب مص الشفاه؟

- لقد عادت.

أخرجتني كلمات راضي من تفكيري الاسفنجي ، ودون أن أراه رأيتها تنكب على وجهي بالقبلات ، واستجابت شفتاي لقبلات شفتيها مضطراً ، وبدأنا المص بعد أن إحتضنتها وعصرتها بساعديّ لأقنعها .

أخبرتني خيرية وكأنها تخبرني للتو ، اذ لم تكن كلماتها قد أحاط بها ضباب سنوات المحنة التي عشناها معاً و أصابتنا كما أصابت الآخرين من أبناء قبيلتنا.

قالت :

- لقد جاء القاضي بالنساء العارفات بمسائل النساء من بغداد وقمن بفحص زوجة الشيخ الكبير ، لأنها أخبرت أم الشيخ الكبير بعد وفاته مباشرة بأنها حامل ، فقامت أم الشيخ الكبير و أرسلت بمن يطلب من القاضي أن يرسل العارفات .

وعاد الصمت مرة أخرى الى الغرفة الملتهبة . سكتت خيرية وما زال بصرها يلامس صفحة وجهي ، إنها عرفت أن ما تخبرني به ذا أهمية كبيرة ، و أرادت أن أستجديها الأخبار ، إلا انني لم أفعل ذلك ، بل صحت بها ناهراً:

- لا تكوني أنانية... هيا اكملي دون توقف.

نظرت لي وابتسامة شامتة على شفتيها ... تجرعتها بمرارة كمن يتجرع زيت الخروع لتليين محتويات معدته، وكززت على أسناني ، إلا أنها ، وكمن عرف أنها قد ردّت لي صاع عدم

تجاوبي معها قبلاتها بصاعين من شفتيها الشامتتين ، قالت ضاحكة:

ـ أخذن زوجة الشيخ الكبير رحمه الله معهن الى بغداد لتبقى في بيت القاضي لفترة لم يحددن طولها ، وكان ذلك بطلب من أم الشيخ الكبير... ثم أردفت قائلة:

ـ هذا ما حدث في الدار الكبيرة يا حبيبي.

ثم كمن تريد أن تسترضيني ، قالت متسائلة والابتسامة تشع على وجهها:

ـ أرضيت يا حبيبي ؟

بعد أربعة أشهر وعشرة أيام من وفاة الشيخ الكبير أخبرني والدي وكأنه يخبرني للتو ، بعد أن سألته عن الأخبار التي تتناقلها الألسُن ، وخاصة ألسُن النساء ، عن زوجة الشيخ ، قال :

ـ نعم ... وقد تبين أن المرأة كانت كاذبة ، اذ انها لم تكن حاملاً.

قلت فيما قلته سابقاً انني فقدت ابنة عمي وحبيبتي وخطيبتي خيرية ، وذكرت أن وفاة الشيخ الكبير، وعدم وصيته بالمشيخة هي التي آذنت بالفراق ، لهذا رحت أتحين الفرص لأسأل والدي عن ذلك ، اذ ان أعباء مساعدة الوكيل الجديد أرهقته كثيراً وعندما حانت لي فرصة الحديث معه بعد حصولي على الشهادة الجامعية مباشرة ، أي بعد أربعة أشهر وعشرة أيام من وفاة الشيخ واحتفالي أنا وراضي بهذه المناسبة بشرب قدحين من الشربت الأحمر الذي جلبته معي من بغداد ، دخل علينا والدي غرفتي فيما كان راضي يهم بالخروج ، هنأه والدي على نجاحه ، وعندما غادرنا ، سألني والدي مباشرة :

ـ ها... ماذا ستفعل بالشهادة ؟

ودون تردد ، وبجرأة غير معروفة عندي عند الكلام مع والـدي قلت له :

ـ أبي أرجو أن نترك أمر الشهادة الى مابعد أن تجيبني عما يـدور في رأسي من تساؤلات قد مضـى عليها وقـت دون أن تجـد لها أجوبـه وأنا في حيرة منها؟

نظر والدي في وجهي ـ حتما انـه عـرف ما أريـد أن أسأل عنـه ـ وكمن غضب من شيء قال بتوتر :

ـ ان أسألتك كثيرة ، وأجوبتك قليلة ، ماذا أصابك ، هـل الجامعـة أنستك من أنت ، أم أن الدراسة في بغداد أنستك أنك ابني ؟ أم مـاذا ؟ أجبني انت؟

كان الغضب يتصاعد مع تصاعد وتيرة صوت كلمات أبـي التي تخرج من فمه كأنها مفرقعـات ، ولكـي أهـديء مـن غضبـه رحت أتوسل اليه وأطلب منه أن يهدأ، وقلت كما أذكر:

ـ أبي كل الـذي قلتـه غـير صحيح ، فـلا الجامعـة ولا بغـداد قـد أنستني انني ابنك ، وأنت والدي ، إلا انك تعرف انني كبرت ودرسـت وعليّ أن أفهم جيداً ما يجـري حـولي، خاصـة أن مـا جـرى قـد مـس القبيلة والعشيرة بالسوء كثيراً وقد لحقك أنت وعمـي، بـل قـل بيتنا وبيت عمي بهذا السوء – بين هذه الكلمات تذكرت محنة أبناءِ جدنا آدم ـ إلا يمكنك أن تخـرج مـن صـمتك هـذا وتخبرنـي الحقيقة دون أن أعرف هـذه الحقيقـة مـن الآخـرين ، وأنـت تعـرف الآخرين والقيـل والقال؟

سـكتُ بعـد أن أحسسـت أن جُملـي كانـت طويلـة جـداً ولم يستوعبها فهم والدي القروي ، وعلـيّ أن أرأف بكـبر سـنه ، إلا ان أبي لم يعلق بشي ، وهذا ما زاد الطين بلة ، بل راح ينظر في وجهي

وابتسامة صغيرة على شفتيه أضاءت وجهه المتغضن بلحيته الخفيفة البيضاء ، ثم وهو يقبلني على جبيني قال :

ـ اسأل.

أحسست بالدم يصعد الى وجنتي خجلاً ، بل حقيقة كنت خجل من أبي كأنني صبية عذراء أمام من يسألها القبول بالزواج من شخص ما (*)، وبهدوء وأحترام الابن لأبيه ، قلت:

ـ سامحني ان أغضبتك ، إلا انني أريد أن أعرف منك بالذات لماذا افترقت عن عمي؟ ولماذا فسخت خطوبتي من خيرية ؟ ولماذا ...؟

ولم اكمل اسألتي، اذ وضع والدي كفه على فمي وأغلقه كأنه يغلق إناء تفوح منه رائحة لا يطيقها ، وخرج تاركاً أسئلتي علامات استفهام كبيرة .

كان صمت والدي يُخفي أشياء كثيرة لاتريد أن تنعتق من قمقمها الذي في رأسة والمشدود جيداً بعقاله الأسود الشطراوي (*) فأحترمت هذا الصمت ورحت أنا أتصنعه أيضا الى حين .

***

الورقة الرابعة:

أخبرني والدي الكثير عن أحوال القبيلة قبل وبعد موت الشيخ الكبير وكأنه يخبرني للتو ، اذ لم تكن كلماته – وقت ذاك - قد أحاط بها غبار أيام المحنة التي عشناها وأصابتنا كما أصابت الآخرين من أبناء قبيلتنا ، و سطرها قلمي على هذه الاوراق دون أن أعرف الأخبار من طرف آخر بعد أن فقدت ابنة عمي وحبيبتي وخطيبتي خيرية ، و بعد أن رحلت هي وعائلتها وأغلب عوائل القبيلة الى مكان لا نعرف عنه شيئاً . قال من قال: انهم سكنوا أطراف بغداد الغربية . وبعضهم ذكر: انهم تركوا العراق . ومن قال: انهم تغربوا في البلاد الشرقية ، ومنهم... ومنهم ... ولكن الشيء الأكيد انني لم أر خيرية منذ سنوات ، أي منذ أن جاء الخبر من بيت القاضي ان زوجة الشيخ الكبير التي إدعت انها حامل كانت غير حامل ، وصرح شيخ سلف العماريين بالوصية.

ها أنا أقضي يومي بين الدوام في المدرسة وصديقي راضي وبين الجلوس في غرفتي أنا وهو. أو الجلوس في غرفة راضي . وكنت بين الحين والآخر أسأل والدي عن شيء كان عليّ توثيقه من مصدر معتبر . وكان أبي هو ذلك المصدر المعتبر. وكان هو يجيب مرة ويغضب أخرى من أسألتي.

كان راضي قد أمتحن بما أمتحنت به مع خيرية ، كانت حبيبته فوزه قد رحلت مع عائلتها مع الراحلين من قبيلتنا . إلا أن مجموعتهم أخذت اتجاها آخر غير الاتجاه الذي يممته الجماعة التي فيهم حبيبتي خيرية ، وبقينا أنا وهو نندب حظنا لأننا لا نعرف سبباً معقولاً لهذا الفراق ، أما السبب غير المعقول حسب ادراكنا أنا وراضي فقد عرف وانتشر بين ناس قبيلتنا الواحدة ، بين ناس عشائرها وأفخاذها وأسلافها وبين خلق الله الآخرين ، والذي حدثني

عنه والدي ، وكنت أنا وراضي يعرفان به ، وها أنا أسطره على هذه الاوراق دون أن أزيد عليه حرفاً أو أنقص منه آخر .

ذكر والدي الامور كما حدثت وكأنها تحدث للتو، اذ لم تكن قد أحاطت بها الغيوم السوداء لسنوات المحنة التي عشناها وأصابتنا كما أصابت الأخرين من أبناء قبيلتنا، وكما كنت أعرف بها ويعرف بها جميع خلق اللّه دانيهم وقاصيهم . ذكر أمامي صبيحة يوم جمعة باردة من شهر كانون الثاني ، والمطر والرياح هما الظاهرتان الطبيعيتان اللتان عرفهما ذلك اليوم ، قال لي كأنه يحدث نفسه بأمر جلل :

ـ أول ما فاجأني أنا بالذات هو وصية الشيخ الكبير ، ومن ثم وفاته السريعة رحمه اللّه دون أن يجيب على سؤال القاضي عن رآسة المشيخة من بعده .

لا أعرف ان كان والدي قد أصبحت دموع عينيه سريعة النزول هكذا بسبب الألم الذي تركه موت الشيخ الكبير، أو بسبب عدم نطق الشيخ الكبير بإسم من سيخلفه على القبيلة قبل أن يموت . أم لكبر السن الذي وصل اليه ؟ إلا أن ذاكرته ما زالت طرية ، ذاكرة شاب في العشرين من عمره ، لما لا ، فهو لم يدخن ولم يشرب الشاي ، وحتى القهوة لم يذق طعمها مرة واحدة طيلة حياته ، لهذا كانت ذاكرته قوية ، إلا أن دموع عينيه كانت سريعة الجريان لا يمنعها عن النزول عند ذكر موت الشيخ الكبير أي شيء ، فتركته يبكي بصمت لأن البكاء يخفف آلام إتقاد الذكريات.

قال أبي بعد أن مسح عينيه بكُم دشداشته البيضاء وهو ينظر الى خارج شباك الغرفة والمطر يهطل بغزاره :

ـ كانت زلزالاً كبيراً قد وقع على رأسي ورؤوس الذين خلفوني (*)... كيف ذلك ، سألت نفسي وقتها ؟ – هو الذي قال وتابع التساؤل ـ هل أراد الشيخ الكبير أن يتركنا هملاً دون راعٍ ؟ ...وأخيه ؟ لماذا لم ينصبه شيخاً علينا ؟ لماذا لم يختر واحداً منا نحن شيوخ عشائر قبيلته ؟ لا أقول أنا ... أستغفر الله ... كان يجب أن يختار حتى ولو كان عبداً حبشياً من عبيده الذين يملأون المضيف ... كان يجب أن يختار يا خيري ـ أكد لي ـ إلا أنه لم يختر ، وكانت مشيئة الله سريعة بموته يرحمه الله.

كان اعترافاً مؤلماً لوالدي الى الحد الذي جعلني أخشى عليه أن تصيبه جلطة او ذبحة صدرية.

سكت والدي عند هذا الحد ... ونهض من مجلسه وخرج دون كلام زائد ، ودون أن يلتفت لي . خرج بصمت كعادته وأخذ الصمت معه وترك معي أكثر من صوت يتعارك في رأسي الذي أشعر به وقد أصبح بحجم كرة القدم . امتلأ بها تفكيري ، حتى أصبحت أسئلة تنتهي بعلامات استفهام أضيفت الى التي أخبرني بها أبي سابقا.

كنت قد سمعت بهذا الكلام من قبل ، إلا أن أبي قد وثقه عندما ذكره أمامي برحابة صدر... فأصبح عندي مسطراً على هذه الاوراق البيض التي بين يدي ، والتي لا أدون شيئاً فيها ما لم يوثق من قبل والدي .

كنت أعرف أن هذا الذي حدث بعد وفاة الشيخ الكبير هو الذي فرق القبيلة ، وشتت شملها ، وأبعد عشائرها وأفخاذها وأسلافها الى نواح عدة ، لكن الذي ظل دون معرفة هو لماذا لم يوص الشيخ الكبير بمن سيخلفه؟ وهذا أيضاً ما سبّب بكل ما حدث بعد ذلك أيضاً ، والذي زاد الطين بله هو أنهم لم يعرفوا له ولداً ، وأيضاً

أن الذي أوصل الأمور الى ما وصلت اليه هو كذب التي ادعت حملها ، وادعاء شيخ سلف العماريين بالوصية.

مرة قال لي راضي بعد أن هاجت ذكرياته مع حبيبته فوزه فسالت ذكرياتي أنا مع ابنة عمي وخطيبتي وحبيبتي خيرية كفيلم سينمائي:

- يا خيري أن أسئلتك كثيرة ، وهي لا تغنينا بشيء ولا تسمننا فدع عنك هذه الأسئلة ، واترك الأمور تسير كما أراد اللّه لها أن تسير ، أو كما قدرها.

قلت له وما زال خيال خيرية مالئا كل تفكيري بقبلاتها النارية ، وبمصها لشفاهي وكأنهما حلوى :

- أنسيت انني أحمل شهادة اختصاص في التاريخ ؟

أجابني ضاحكاً :

- أعرف ذلك ، ولكنك لست بمؤرخ ، انك درست التاريخ لتدرّسه لتلاميذ الدراسة المتوسطة والاعدادية حسب ، وما شأن اختصاصك بما حدث لقبيلتك ؟

قلت له بصوت غاضب :

- وخيرية ؟ ها ...؟ وفوزه ؟

أجابني والابتسامة مرسومة على شفتيه :

- وما شأنهما ؟

قلت له محتجا :

- ألم تكن تلك الاحداث التي أسأل عنها هي سبب الكارثة ، وسبب ما نحن فيه ؟

قال لي مهدئاً من غضبي:

- اهدأ قليلاً ... ان ما تسأل عنه نعرفه جميعا ، وأنت تعرفه كما أعرفه أنا والعبد خادم الشيخ الكبير .

أجبته مسترداً بعض هدوئي المفقود :

- نعم ، ولكن الوثوق هو الذي أبغي ، والقول الموثوق عند أبي فقط وهناك اسئلة كثيرة لم أحصل على اجابات عنها.

سألني مستهجناً قولي:

- من قال هذا ؟

- أنا الذي أقول ، وأنا أعرف ذلك ، وأنت تعرف أن لا أحد يعرف الأمور أكثر من والدي .

رد قائلاً :

- هذا صحيح ... الا أن والدك ربما لم يكن صادقاً معك بعد أن صار اليد اليمنى لوصي الشيخ الكبير على حق المشيخة وعلى ابنه الغائب الذي يدرس خارج العراق.

أدهشني كلامه ، وكنت أعرف أن راضي لن يصدق مثل هذا الادعاء، سألته :

- وهل صدقت هذا الادعاء؟

أجابني دون تفكير :

- وكذلك والدي ووالدك أيضا وبقية أفراد القبيلة أجمعين.

ضحكت بصوت مجلجل ملأ الغرفة وخرج الى الهواء الطلق ، و بانت أسناني بيضاء ناصعة ، فيما أخذ راضي يتلفت يمنة

وشمالا، وأسرع ليضع كفه على فمي ليمنعني عن الضحك وقال بصوت عال:

- اسكت ، لقد فضحتنا ، سيسمع والدك صوت الضحك ، وأنت تعرف أن مثل هذا الضحك لا يقبل به .

عندها مباشرة ترك راضي فمي وأسرع خارجا من الغرفة ، بل هاربا من المواجهة التي خمن انها ستقع بيني وبين والدي بسبب الضحك العالي ، إلا أن شيئا من ذلك لم يحدث، لأن والدي كان خارج أراضي عشيرتنا على أراضي عشيرة أخرى ليأتي منها بحصة المشيخة ، ليرسلها الى الوكيل الذي بدوره - وحسب ادعائه – سيسلمها الى ابن الشيخ الكبير الذي يدرس في لندن.

***

الورقة الخامسة:

في ساعة من ساعات ظهيرة أحد أيام الصيف الحارة ، والتي تبـول فيها الحمير دما ، كنت جالسا لوحدي في غرفتي في الطابق الثانـي من بيتنا ، بعد أن تزوجت من شقيقة راضي وتزوجت شقيقتي مـن راضي . فتحت سجلي، ورحت أدون ما كنت أذكره من أيام الحـب – و امتلأت هذه الصـفحات برسـومات لازهـار بلـون الـورد ـ الـتي لم تشوهها أيام المحنة التي عصفت بنا نحن أبناء القبيلة.

كتبت : في يومه وتاريخه ، وعنـد ظهـيرة ذلـك اليـوم القـائظ والشـمس في سمـت السـماء ، وبالكـاد يتـنفس النـاس الهـواء السـاكن الثقيـل ثقـل الرصـاص علـى الـرغم مـن بـرادات الهـواء الكهربائية التي تدور لتبرد هواء الغرفة وتجعلـه نسـيماً ، كنـت أصطلي في أتون غرفة ماكنة الماء عنـدما دخلـت خيريـة ، فيمـا كان راضي ينتظـر دوره في الـدخول الى الغرفـة مـع فـوزه ، وهـو يراقـب المـارة عـن بعـد ليثنـيهم لـو حـاولوا الاقـتراب مـن الغرفـة . وكانت فوزه تنتظر مجـيء خيريـة لهـا لتأخـذها الى بيتهـا لتريهـا بدلة عرسها التي أتت بها من بغداد و ليقضيا وقتاً مسـلياً ، إلا انهـن يـعرفن أن ذلك حجة للقائها براضي .

في ذلك الحين كانت خيرية تخبرني أنها سمعـت والـدها يسـب عمها وأبو راضي ويـكيل لهما الـتهم ، ويقـول عنهمـا كلامـاً لا يـليق بهما .

سألتها عن ذلك الكلام غير اللائق فلم تذكره أمامي ، ورجتني أن لا أطلـب منهـا ذكـره ، لأنهـا لا تريـد أن تسـيء لعمهـا ، والـد حبيبها وخطيبها ، هكذا قالت لي .

وعندما انتهت خلوة فوزه وراضـي ، أخبرنـي راضـي أن فـوزه قـد أخبرتـه أنهـا سمعـت والـدها يسـب أبيـه ووالـد خـيري ، وسمعتـه كذلك كمـا أخـبرت راضـي أنـه كـان يقـول لوالـدتها : انهمـا كاذبان.

وعندما سألها راضي عن هذا الكذب الذي ينسبـه أبوهـا لوالـد خـيري ووالـده ، ادعـت – هكـذا أخبرنـي راضـي لانـه عـرف أنهـا كانت تـدعي – انهـا لم تسـمع البـاقي مـن الكـلام لأن جـارتهم الدلالة(*) قد نادت عليها لتريها بعض قطع القماش .

راح قلمي يسجل ما تمليه عليه الذاكرة مما حدث في تاريخـه ووقته ، فكتب أيضاً: لم أذكـر لوالـدي مـا قالتـه الحبيبتـان لـي ولراضي ، لأن المصدر كان نسائي فقـط ، وهـو لا يقبـل بـه لأنـه كان يسميه أقوال نساء كلها كذب ، إلا انني عرفت فيما بعـد أي ، بعد أقل من ساعة، ان هناك مشادة حـدثت في مضـيف سـلف العماريين في الضفة الأخرى من النهر، بين أبي من جهة وبين أخيـه أبو خيرية وأبي فوزه ، وانتصر في هذه المشادة أبو راضي لأبـي ، ثـم بعدها انقسـم النـاس الـذين في المضـيف ، وكـانوا جمـيعهم مـن رؤوس العشـائر والافخـاذ والاسـلاف في قبيلتنـا ، الى عـدة اقسـام فقسم انضم الى والدي الذي كـان صديـقا لشيـخ سلف العماريين الذي ادعى في تلك الجلسة أن الشيخ الكبير قد إئتمنه على ابنه ابن زوجتـه الانكليزيـة ، الـذي يـدرس خـارج العـراق . وادعـى – كـذلك ـ ان الشـيخ الكـبير طلـب منـه أن يرسـل لابنـه المـال ليكمل دراسته ليعود الى القبيلة ويمسك زمام امورها . عندها – كما سمعت ممن كان يريد أن يسـمعني هـذا تعالـت الأصـوات العالية والهمهمات المنخفضة ، فمنها من أنكـر هـذا القـول بحجـة عدم وجود الشاهد . أو بحجة أن الشيخ الكبير لم يـوص القاضـي بذلك . او بحجة أن الشيخ لم يعرف عنه أن لديه ولداً . ومن قال بـلا

تردد – كما ذكر لي آخر – ان هذا الشخص نهض واقفاً في المضيف وأعلن بصوت جهوري: انه كان مع الشيخ الكبير في احدى سفراته الى بغداد وقد أخبره الأطباء بعقمه .

عندها ، كما ذكر الذي اخبرني بذلك ، قام بعض الجالسين وانهالوا عليه ضرباً ، ثم سحبوه خارج المضيف ، فصعد سيارته ورحل الى أرض سلفه . ومن هناك ـ كما عرفت ـ ترك هو وأبناء سلفه أرض السلف الى مكان مجهول .

وعندما عرفت ذلك من رجال القبيلة بعد ساعة من ذكر حبيباتنا السب والشتم ، اذ في عالم قريتنا ، قرية عشيرتنا والقرى الاخرى لعشائر قبيلتنا واسلافها ، لم يكن هناك من سر يمكن المحافظة علية طالما هناك شفاه تتحرك وآذان تسمع فالحيطان لها آذان كما قيل.

تحينت الفرصة لأختلي بأبي ، لأسأله عن مصداق هذه الاخبار فكان لي ذلك ، فقال مؤكدا قولي :

ـ كل الذي سمعته صحيحاً .

قلت له متسائلاً:

ـ أعرف انه صحيح ، ولكن لماذا حدث كل ذلك ؟

قال أبي وهو ينهض من مجلسه متوتراً:

ـ ستعرف فيما بعد ... ثم أردف قائلاً :

ـ سأذهب للمضيف الكبير... الوكيل طلب حضوري .

وكان الوكيل هو شيخ سلف العماريين نفسه ، نقل مجلسه الى مضيف الشيخ الكبير ليكون – كما أخبرني أبي – قريباً من اموال المشيخة التي استودعها اياه الشيخ الكبير ، الذي اوصاه

أن يجتهد في المحافظة على ولده الغائب على أرض الأجانب ليكمل دراسته هناك .

وكان والدي هو الشخص المفضل عند الوكيل ، وكاتم اسراره ، والحافظ لسجلات القبيلة ، فكانا كما وصفهما أحد مسني القبيلة الظرفاء : (مؤخرتين في لباس واحد) .

أصبحت علاقة أبي بالوكيل أكثر من علاقته بالشيخ الكبير قبل أن يتوفاه الله ، بل انه سيطر والوكيل على غلة كل الأراض التي تركها أبناء القبيلة ، فزادت ثروتهما ، وبنيا لهما قصورا في بغداد. والذي زاد الطين بله اننا سمعنا أنا وأمي وأختي أن والدنا قد تزوج بفتاة من (إحديثات)(*) بغداد ، ألا انه أنكر ذلك.

في يوم ما من أيام المحنة ، وكان الجو مغبراً بغبار أحمر كالدم صعد والدي الى غرفتي التي كنت أختلي بها مع كتبي وسجلاتي وبراضي عندما يزورني . دخل الغرفة وكان يسحب الهواء من منخريه وفمه اللذين سدهما الغبار ، فيما صوت سعاله يملأ الجو جلس بالقرب مني ، ثم سحب كتاب الله من الرف الذي كان يقبع عليه ، وفرشه امامي على صفحة خمنت انه قد علمها بعلامة قبل هذا الوقت ، ثم طلب مني أن أتلو بصوت عال ما مذكور في الآية الثالثة من سورة النساء ، فتلوت قوله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم ((وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا)) .

بعد أن انتهيت من تلاوة الآية أغلق والدي كتاب الله وقبله كما فعل عند فتحه ، ثم وضعه على رأسه ، و بعدها على رفه

الخاص . سألني بعد أن مرر أصابعه على شعر لحيته البيضاء الخفيفة متفاديا نظراتي المصوبة الى وجهه المتغضن:

- ألا ترى ان الله كان رحيما بعباده؟

قلت له دون تردد وأنا أعرف غايته من قراءة هذه الآية:

- ومن أرحم من الله بالعباد ؟ ... ثم سألته :

- وماذا في ذلك ؟

انفرجت أساريره ، ووضع كفه اليمنى على وجهي ثم سحبها و قبلها وقال بتوسل عرفته منه تلك اللحظة :

- أنا أعرف أنك ستفهمني ، ولكن أطلب منك أن تقنع والدتك بذلك .

سألته مستفسرا وكأنني أجهل كل شيء:

- بماذا تريد أن اقنعها؟

قال لي وما زالت الابتسامة على شفتيه :

- أنا أعرفك من أذكياء القبيلة . وأعرف أنك تعرف . إلا أن والدتك وأختك لا يفهمن أمر الله .

تغابيت و قلت له:

- وما هو أمر الله الذي أمرك به ؟

نظر في وجهي ، فيما غيمت أساريره ، وتحركت شفتاه بأضطراب ، وراح يطيل النظر حتى خلته قد تجمد ، إلا انه صرخ بي بصوت عال :

ـ أتريـد ان تتحـاذق معــي ؟ أم تريـد أن تغيضـني ؟ أم انـك تريـد أن تطلب ثأرك مني وأنا لا دخل لي بالمسأله . ان عمك هو الذي ركـب رأسه وانشق عن القبيلة ، وأخذ خيرية معه ؟

قلت له بكل هدوء فيما ملأ كياني سرور تام بالانتصار لأمـي ولأختي منه:

ـ أبي كل شيء قد انتهى بوقته .

وقلت مع نفسي ـ التـاريخ يعيـد نفسـه ومـا كـان بـين قابيـل وهابيل قد أعيد – ثم تابعت قولي:

ـ أنا الآن متزوج مـن أخـت أعـز صـديق عنـدي ، وأنتظـر ابـني الأول فلماذا تنكـيء جروحاً حاولت أن تندمل ، ألأنك تعرف انك وبعض الرجال القلائل مـن قبيلتنـا كنـتم السـبب في هـذه المحنـة وهـذا الانشقاق ؟

نهض والدي من كرسيه وقد تصاعد الـدم في وجهـه غضـبا – لا أعرف ان كنت قد نكـأت جروحـاً عنـده حاولـت هـي الأخـرى أن تندمل بسبب الزمن ـ وهمَّ بـالخروج ، إلا انـني بادرتـه قـائلاً بعـد أن تيقنت انه خذل من ابنه الكبير:

ـ أترك الأمر لي .

عندها عـاد أبـي الـيّ وقبلني في وجهـي عـدة قـبلات ذكـرتني بخيرية عندما كانت تهجم عليّ لتملأ وجهـي بقبلاتهـا الناريـة، ثم خرج جذلاً لا تسعه الأرض.

***

الورقة السادسة:

كنت أنا وصديقي وصهري راضي في غرفة المدرسين في بناية المدرسة الوحيدة في قريتنا التي لم يبق من ساكنيها سوى عوائل تعد على أصابع اليدين ، قال لي راضي دون أن يلتفت يميناً او شمالاً ، اذ لم يكن في الغرفة سوانا ، فنحن المدرسين الوحيدين في المتوسطة ، وأنا المدير وهو المعاون:

ـ أتعرف ؟

سألته ، بعد أن مرت أصابع كفي اليسرى على شعر رأسي الأسود فيما كانت عيناي تحدقان في سجل الدرجات للتلاميذ الخمسة الذين كنا ندرس لهم :

ـ وماذا عرفت أنت ؟

قال:

ـ ان الوكيل سيذهب الى لندن ليلتقي بإبن الشيخ الكبير ؟

ابتسمت، وامتد بصري من خلال الشباك المفتوح الى أرض حديقة المدرسة التي لم تر الماء ولا الخضرة منذ أن وضعت أول طابوقة للبناء ، قلت له:

ـ أخبار قديمة .

ثم عدت ببصري الى الاوراق التي أمامي والمدون عليها أسماء الطلبة الخمسة الوحيدين في المدرسة ، وأردفت قائلاً:

ـ وسيشيّعه والدي الى المطار في بغداد .

بدا الغضب على وجه راضي ، وأدار رأسه كمن زعل ، قلت له :

ـ راضي... حسبتك تعرف بالأمر من والدك ولهذا لم أخبرك به .

قال بإنكسار من عرف جحود عزيز عليه:

ـ أنت تعرف انني لم اسأل والدي كثيراً مثلك ، وانما أنتظر أن يقول هو ما يريد أن يقوله لي ، أو أن يخبر أمي به.

في الحقيقة ، بيني وبين نفسي ، قلت : سيذهب الوكيل ليستجم في لندن ، وسيترك والدي يدير أمور القبيلة الصغيرة وليجمع حق المشيخة من غلة هذا الموسم من عشيرتنا ومن ناس العشائر والافخاذ والاسلاف الذين ظلّ ولاؤهم للوكيل .

لا أعرف ان كان والدي يعرف أن شيخ سلف العماريين كان يكذب في ادعائه بوصايته على حق المشيخة وعلى وجود ابن للشيخ الكبير والذي يدرس – هكذا ادعى – في لندن ، ويعرف جيداً أن الشيخ الكبير لم يخلف بعده ذرية ، أم انه قد أخذ أخذاً وكان كالأطرش في الزفة؟ ولكن الأمور تفضي الى أن والدي كان يعرف كل شيء ، لأن شيخ سلف العماريين لم يكن قريباً من الشيخ الكبير كقرب والدي منه ، إلا انني أشهد أمام اللّه والناس انه كان أكثر جرأة من والدي ، وأذكى منه .

مرة ، سألت والدي قبل أن يتزوج بإمرأة أخرى غير أمي عن صدق الادعاء بوجود ابن للشيخ الكبير ، قلت له :

ـ أبي أريد أن أسألك سؤالاً وأعرف أنه سيغضبك إلا انني يجب أن أسألك اياه .

نظر الى وجهي ملياً وقال :

ـ ألم أقل أن أسألتك بعد وفاة الشيخ الكبير رحمه اللّه قد كثرت وكلها تغضبني؟

قلت مبتسما:

ـ هذه سنة الحياة ... يأخذ الأبناء معارفهم من الآباء.

ضحك والدي طويلاً ، ثم قال :

ـ اسأل؟

قلت :

ـ هل صحيح ما كان يدعيه شيخ سلف العماريين ؟

وكمن فوجيء بالسؤال ، صمت ، اصفر وجهه وأضطربت شفتاه ، وبعد فترة أجابني :

ـ أتريد جوابي أم جواب عمك الذي انشق عن القبيلة ؟

قلت له :

ـ أنا أعرف جواب عمي ، إلا انني أريد أن أعرف الحقيقة منك.

قال لي وهو يريد اقناعي :

ـ أنت تعرف يا ابني أنني لا أملك سوى خمسة دونمات من الأرض وهي غير منتجة ، وأنت تعرف يا ابني أن الشيخ الكبير رحمه اللّه قد كانت يديه خضراء معي ، وأنت تعرف يا ابني انك أكملت الدراسة الجامعية في بغداد بالأموال التي كانت تفيض من يدي الشيخ الكبير رحمه اللّه ... فلا تبسق في الاناء الذي تشرب منه .

كان كل الذي قاله والدي صحيحاً مائة في المائة ، الا انني سألته :

ـ وما شأن أفضال الشيخ الكبير بسؤالي؟

رد قائلاً:

ـ ألم أقل انك تكثر الاسئلة!؟

قلت له :

ـ لقد طلبت منك أن أسألك فوافقت .

قال ، بعد أن تعمقت تغضنات رقبته واصفر لونها :

ـ لم أكن أعرف أن سؤالك هو هذا الذي يدفعنا لترك القبيلة مع الذين تركوها ، أو أن نسد نهر الخير بوجوهنا.

سألته مستزيداً:

ـ وكيف؟

قال بعد أن نهض من الكرسي الذي كان يجلس عليه واتجه الى باب الغرفة يروم الخروج ، أو الهروب من أسألتي :

ـ لنترك الاجابة الى وقت آخر.

عرفت وقتها – بل تيقنت ـ ان أبي لا يريد أن يجيب عن سؤالي وانه يخبئ ما يشيب له رأس الرضيع ، وان خروجه من غرفتي بعد طرح هذا السؤال هو فراره من شيء ما يجب أن أعرفه جيداً . إلا انني وبعد أيام تذكرت قوله لي عن حالتنا الاقتصادية ، وعن أفضال الشيخ الكبير على والدي ، وعن اكمال دراستي الجامعية فرحت أحلل أقواله هذه الواحدة تلو الأخرى ، ثم أقوم بالربط بينها علني أصل الى ما أريد.

بدأت من حالتنا الاقتصادية ، ورحت أحلل في سجلي الخاص فكتبت فيه : ان الداني والقاصي يعرف أن والدي – على الرغم من انه شيخ عشيرتنا بالوراثة عن أبيه ـ كما عمي أبو خيرية ـ يملك خمسة دونمات ، دونمين ونصف ورثها عن أبيه الحاج سلمان ودونمين ونصف ورثتها أمي عن أبيها الحاج سالم ، وكلها كانت إرثا من جديّ والد الحاج سلمان والحاج سالم ، إذن فنحن نعتبر من العوائل متوسطة الدخل ، بالقياس الى أبي راضي الذي يمتلك عشرة دونمات .

ثم فتحت صفحة جديدة في السجل ورحت أدون : من المعروف للداني والقاصي أن أبي من أقرب أصدقاء الشيخ الكبير . ومن المعروف جيداً أن الشيخ الكبير كان نهرٌ من الخير يفيض على جنبيه ، وعلى أحد جوانبه كان يقف والدي ، كما كان بعض أفراد القبيلة ، وكنت أعلم علم اليقين أن الشيخ الكبير قد ارتحل من عالمنا هذا الى عالم الرحمن الرحيم دون خلف ، وان يديه اللاتي كانتا تحمل الخير لنا قد قبضت أو انها صارت عظماً نخراً ليس إلا . وأعرف جيداً أن قبيلتنا ظلت بدون رأس يقودها ، أقصد بدون شيخ . وأعرف جيداً أن أبناء قبيلتنا الكبيرة قد تبخروا بعد أن كانوا في قدر مغلق يغلي .وعندما رفع الثقل عن غطائه – أقصد الشيخ الكبير- تبخر كل شيء ، عندها تذكرت غورباتشوف وما فعله بالاتحاد السوفيتي برفع يديه من على قدر الاتحاد الذي كان يغلي ، كل هذا اعرفه ، وأكثر منه ، لكن الذي لا أعرفه أن للشيخ الكبير ابناً يدرس في لندن ، وان شيخ سلف العماريين هو وكيله على حقوق المشيخة وابنه ، هذا ما لا أعرفه ، و يجب أن أعرف الصدق في الخبر.

مرة ، وكمن يحقق مع متهم، رحت أسأل أبي عن شيخ سلف العماريين ، سألته:

- لم أره يكثر المجيء الى مضيف الشيخ الكبير سوى في المناسبات وعند جمع وتوزيع الغلة ، فكيف اختاره الشيخ الكبير وكيلاً ووصياً ؟

تعكرت صفحة وجهه السمراء المتغضنة ، ثم اصفرت ، وراحت شفتاه ترتعشان ، وأحسست كأني أرى الى شعيرات لحيته البيض قد قفت من كلامي ، ومن بين الشفتين المرتجفتين جاءني صوته متعثراً، مخذولاً:

ـ ابني لماذا لا تسكت ؟ اللّه يلعن الساعة التي أدخلتك فيها المدرسة ... كانت غلطة ... غلطة كبيرة ، لم نحصل من جرائها سوى هذه الاسئلة النكدة .

ثم خرج ، ليس من الغرفة فحسب وانما خرج من باب الدار ، دون أن يقول شيئاً آخر ، ويحمل الصمت غائماً في عينيه من الغضب.

***

الورقة السابعة:

مرت الأيام بنا كما مرت على خلق الله منذ ملايين السنين رتيبة ، كئيبة ، لا شيء فيها يذكر.

الأيام تتسارع . وتمضي الشهور. والليل ينسلخ من النهار. والنهار ينسلخ من الليل . وكلاهما ينسلخ من الآخر دون أن نعرف أيهما كان البداية . انها حكاية البيضة والدجاجة ، و نحن لا نرغم تفكيرنا على الوصول الى نتيجة أيهما البادىء في الانسلاخ كما أصبح عليه الحال عند أبناء قبيلتنا . اذ تناست الناس محنتها ، أو أنها أرتضت بما آلت اليه أمورها . كما تناسى خلق اللّه محنهم منذ قتال هابيل و قابيل ، وأصبح كل ما في أيديهم هو الأهم . أما أنا وراضي فلم ننس محنتنا .

كنا نعيش حياتنا الزوجية ، انا مع شقيقته ، وهو مع شقيقتي بروتينية قاتله ، تروس في آلة مزيتة لا تعرف التوقف ، فكان يومنا متشابهاً ، أستنسخ بواسطة ورق الاستنساخ الأسود . كنا ننام ليلاً مع زوجاتنا ، ونمارس الجنس معهن وكأن شيئا لم يكن ، أو لم تكن خيرية قد قبلتني آلاف القبلات ومصت شفتاي آلاف المرات . فيما تتراقص في رأسينا ، رغماً عنا، خيالات حبيباتنا بين الحين والاخر.

أخبرني راضي مرة:

ـ أصدقك القول يا خيري !

سألته مبتسما :

ـ وهل كنت معي في السابق غير صادق؟

رد علي ببرودة كثيراً ما عهدتها فيه:

ـ لا يأخذك تفكيرك الى أبعد مما أعني ، أنا أريد أن أخبرك بعلاقتي الزوجية مع شقيقتك؟

قلت له وكنت أظن أن هناك ما كدر صفو تلك العلاقة :

ـ وهل آذتك بشيء؟

رد علي مبتسماً وخجلاً :

ـ كلا ، إلا انني أريد أن أقول ...

سكت خجلاً بعض الوقت ، وعندما طال سكوته طلبت منه أن يخبرني بكل شيء، ولا يخبئ عني شيئاً ، قلت له مؤكداً :

ـ أنك تعرف أنني سأقف الى جانبك في كل شيء.

ابتسم، ومن بين ملامح وجهه المليئة بالحياء تحدث بكلام متعثر:

ـ أعرف ذلك... إلا انني أريد أن أقول لك ... انني ...أعيش مع زوجتي ...– أقصد شقيقتك ... حياة روتينيه ، وما زالت فوزه تعيش معي .

ضحكت بصوت مجلجل ، وقلت له وكانت الكلمات تخرج من شفتي مملوءة بالضحكات :

ـ والحالة نفسها أعيشها مع شقيقتك ، فما الغريب في ذلك؟

هذه هي الحياة .

سألني بعد أن وصلته عدوى الضحك :

ـ أصحيح ذلك ؟

وأنا أوقف ضحكي ، وبشيء من رصانة لملمت أطرافها جيداً قلت له وأنا أرتدي قناع الرجل الحكيم:

ـ راضي ... ان المحنة كانت عظيمة ، وكان وقعها علينا شديداً .

سألني:

ـ وما ذنبنا نحن ؟

قلت له بذات قناع الرجل الحكيم:

ـ ذنبنا اننا أبناء هذه القبيلة.

سألني شبه غاضب بكلمات سبق أن قلتها له :

ـ وما ذنب أبناء القبيلة كلهم بذلك ؟

قلت برصانة الحكيم العارف بكل شيء:

ـ الأباء يزرعون والأبناء يحصدون ، وهذا ما حصدناه أنا وأنت ، انها محنة الهية .

عندها كمن سمع ما يغيضه... ثار بحدة ... نهض من كرسية واقترب من المنضدة الخشبية التي كنت أجلس الى جوارها ... وضع يدية عليها وأحنى ظهره وواجهني بالكلام ، غاضباً ، ثائراً قائلاً:

ـ أنت تقول هذا!!!؟ ...أنت خيري الدارس في الجامعة في بغداد تقول ذلك !!!؟ ...أنت خيري الذي ملأت رأسك ورأسي بكتابات سارتر، وكامو ، والوجودية تقول ذلك !!!؟

ثم صاح بأعلى صوته:

ـ خيري يقول ذلك يا أبناء القبيلة ويريد مني أن أصدقه؟

لم أره كما رأيته تلك اللحظة ، كان وجهه قد تغير لونه وصوته تغيرت نبراته حدة ، فيما فغرت أنا فمي و عينيّ لم تتركه لحظة واحدة .

ودون سابق أنذار عدل من وقفته ، ودار على عقبيه ، ربما شعر بالانتصار، أو شعر بالخذلان ، إلا أن ما دونته بعد ساعات في سجلي في غرفة الخلوة على سطح دارنا هو : لم أشاهده مثلما رأيته اليوم هكذا ، كنت أعهده وديعاً ، ولا يكثر الاسئلة وكان هو نفسه يعيب علي كثرة أسألتي ،- تساءلت - كيف حفظ هذه الأسماء الوجودية وكان هو عندما كنت أحدثه عنها يهرب مني في بادئ الأمر، وعندما عرف أن هروبه مني يزعجني – وهو لا يريد ازعاجي ولا يحب زعلي - ولا طائل منه ، فأنا أذكر له – رغماً عن أنفه – كل ما أقرأه في هذه الكتب ، يبقى يسمع صاغرا صابراً ، واليوم صباحاً وفي غرفة المدرسين في المدرسة – المدرسان الوحيدان فيها هما أنا وهو – كان احتجاجه على ما قلته قد جاءني عالياً متفجراً ، حتى انني خلت أن كل كلمة قالها قد سمعها طلاب مدرستنا – أقصد الطلاب الخمسة فقط في مدرستنا – الا انني حمدت اللّه أنهم لا يعرفون أصحاب الأسماء التي ذكرها ، وحتماً انهم لم يحفظوها ، لكن الذي قاله ضرب في صميم أفكاري ، عندما ذكّرني بسارتر وكامو والوجودية ، لم أفاجأ ... لانهم ما زالوا معي هنا . فأفكارهم المطروحة في كتبهم ما زالت على رفوف مكتبتي الصغيرة ، وما زلت أعود اليها بين وقت وآخر ، وأعترف أن تفكيري مفارق لهذه الأفكار، لان مجتمع قبيلتنا لا يسمح لها أن تظهر ، أو لنقل بدقة أنها غير مستوعبة من عقولهم . إلا أن راضي – كما ظهر اليوم لي – يفهم ذلك ، ولهذا قال لي ما قال .

تساءلت ، ودوّنت تساؤلي في السجل : هل فهم راضي سارتر والوجودية والوجود والعدم أكثر مني ؟ أم انه فهم ما يمكن فهمه من خلال ما كنت أذكره له ؟

كان عليّ أن أتأكد من ذلك منه ، ولكن – تساءلت - ما علاقة الوجودية بالمحنة التي مرت بقبيلتنا ، وما زالت اثارها عميقة ، ليس في وجداننا فحسب ، وانما كانت ظاهرة في كل ما هو موجود في الحياة ؟ فقد يبست آلاف الدونمات من الارض وأخليت الدور من ساكنيها ، ولعب الرحمن أو الشيطان بعقول أبناء القبيلة . وراح قابيل وهابيل ويوسف وأخوته يجولون ويصولون دون عائق بين ناس القبيلة ، بل أنهم دخلوا بين الأخ وأخيه ، والابن وأبيه ، والحبيب وحبيبته . ولكن ما حدث لم يكن سارتر يعرف به ، ولم يكن قد درسه في فلسفته وأظهره في كتبه ، لانني أعلم علم اليقين أن ما قاله سارتر ينطبق على المجتمع الغربي المادي ولا ينطبق على مجتمعاتنا الشرقية الاسلامية ، أو مجتمع قبيلتنا ، أما انني ذكرت أنها محنة إلهية فهذا ديدن أبي وأبيه وناس قبيلتنا أجمعين ، عندما كانوا يسألون عن هذه المحنة ، فيجيبون أنها محنة الهية ، وحقيقة أنها امتحان صعب ، ان كان إلهي أم غير الهي ، فقد جرى هذا الامتحان علينا جميعا وحصلنا على نتائجه باليد وفي النفوس.

وتابعت التدوين : وأنا أصلاً – أكدت - لست شيوعياً أو دارونياً أو وجودياً كما أراد سارتر من الوجودية - حدثت نفسي - بل كنت معجبا بما كانت تطرحه فلسفته . والذي قربني اليها أحد الزملاء في قسمي وهو رجل متدين ، وحذرني من أن أؤمن بما جاءت به هذه الفلسفة حرفياً ، وانما ذكرها لي وذكر مصادرها لأنها ستفيدني كثيراً في قراءاتي . قال لي محذراً:

- ليس ما يفيدك أفكارها ، بل أقصد الاسلوب الذي طرحت من خلاله ، وقوانين الوصول الى تلك الافكار .

والحقيقة أقول ، لم أفهم منه ما كان يرمي اليه . لا أعرف ما الاسلوب الذي كان يقصده ولا القوانين ، فرحت أشتري جميع

الكتب – بطبعات ترجماتها غالية الثمن ـ التي تتحدث عن الوجودية ، وحتى أدبها الروائي، والمسرحي، والقصصي فتضخمت عندي مكتبتها ، إلا انني – وبعد المحنة خاصة ـ عرفت أن تحذير صاحبي في قسم التاريخ كان صائباً .

إذن ، فأنا لم أكن وجودياً في نظرتي للاشياء ، وما زال ايماني بالله قوياً ، وما زلت أقول أن المحنة التي عصفت بقبيلتنا هي امتحان الهي .

هكذا أكدت لراضي عصر ذلك اليوم بعد أن أغلقت سجلي وأسرعت الى بيته ، وكان هو في غرفته الخاصة التي كانت شقيقتي تسميها صومعته العالية .

عندما دخلت عليه صومعته فاجأته – كما أخبرني هو – قلت له :

ـ راضي... أنا لم أكن في يوم ما وجودياً ، إلا انني كنت أقرأ كتبها للاطلاع ليس إلا ، وما زلت مؤمناً بما أؤمن به ، ويؤمنون به أبناء قبيلتنا.

ضحك عاليا ، وراح يهدئ من ثورتي كما تفاجأ بها ، ثم قال :

ـ لم أرك مستفزاً هكذا ، هل استفزك قولي صباح هذا اليوم ؟

قلت له : لقد كان كلامك سبباً لي في مراجعة أفكاري فتوصلت الى أنني لم أعتنق الافكار الوجودية ابداً ، وانني كما أنت وكما أبي وأبيك وناس قبيلتنا ما زلت أؤمن أن كل شيء من عند الله .

قال بعد أن قدم لي قدحاً من الماء البارد :

ـ ومن قال لك انني أؤمن بما يؤمن به والدي ؟

ذهلت لقوله ... بل كان قوله مفاجأة لي بعد صداقة هذا العمر الطويل ، لهذا سألته قائلاً :

ـ أعرف انك قليل الاسئلة ، وأعرف انك كنت لا تتحدث معي إلا عن "فوزه"، وأعرف انك عندما زاملتني في الجامعة كان قسمك في بناية أخرى بعيدة عن بناية قسم التاريخ ، ولكن أعرف أيضاً اننا في قسم داخلي واحد وكنا نخرج سوية ، وندخل سوية ، ألا انني لا أعرف أن لك أفكاراً غير الافكار التي كنت أعرفك بها قبل أن نذهب الى بغداد وندرس في الجامعة ، فهل كانت لك افكارا غير التي كنت أعتقد أنك كنت تؤمن بها؟

لم يجب على تساؤلي ، الا انه طلب مني أن ارتاح ، قال :

ـ ان سلم دارنا صعب الارتقاء ، لم يكن البنّاء الذي أضافه الى بناية الدار موفقا في تصميمه.

ثم راح يشرح لي أفكاره ، وكلها تصب في مجرى "فوزه" حبيبته التي أخذتها موجة المحنة ، كما أخذت معها ابنة عمي وحبيبتي وخطيبتي "خيرية"، وما كان يعتقد به عن مسؤولية الانسان عن أفعاله ، ولا علاقة للإله فيها.

***

الورقة الثامنة:

غاب الوكيل أكثر من شهرين، وللحقيقة والواقع عاد لا كما ذهب (صعد لحم ...نزل فحم)(*) ، ظل هناك شهري تموز وآب . الشهران الحاران كالجحيم في العراق ، كنا نتلظى بحرارتهما ونكتوي بلهيبهما ، أما الوكيل فقد كان في جو غير جو العراق ، وكان يستنشق الهواء النقي فيما نحن نطلب من اللّه أن يغير من فتحات أنوفنا لتكون واسعة لتستنشق هواء أكثر خاصة في هذين الشهرين اللذين يقف فيهما الهواء كما يقف عزرائيل بوجه شخص ليقبض روحه ، بل ينعدم الهواء ويصبح كالسلعة النادرة ، وفوق كل ذلك ، بل الأدهى من ذلك البرقية التي أرسلها الوكيل الى أبي يطلب فيها نصف الحصه من حق المشيخة الذي جمع أثناء ذهابه لزيارة ابن الشيخ الكبير المغترب . ويطلب كذلك أن يرسلها على عنوان عرفنا فيما بعد انه فندق خمسة نجوم . قال الوكيل في البرقية: من وكيل الشيخ الكبير ووصيه على ابنه وعلى حقوق المشيخة ، الى مساعدنا أبي خيري: أرسل – حفظكم اللّه ـ نصف ما بحوزتك ، لأن ابن الشيخ الكبير رحمه اللّه – اللّه يحفظه من كل مكروه ويعيده الينا سالما ـ يحتاج اليها لتسيير أمور حياته في الغربة.

وفعل والدي ما أمر به . وذهبت أنا وراضي الى بغداد وأرسلنا الأموال اليه ، عندها عرفنا أن العنوان هناك كان فندقاً ينزل فيه الأثرياء ، وفيه أماكن كثيرة للهو وصالات للقمار .

ذكرت ذلك لوالدي عندما عدت ، فبادرني قائلاً :

ـ لا تظلم بختك ، الرجل عنده مهمة معينة ، وهو شخص مؤتمن استغفر اللّه يا ولدي .

بعد أيام جاء من يطلب والدي الى بغداد . ذهبنا سوية أنا وهو . وهناك عرفنا أن الوكيل قد توفاه الله بحادث تحطم الطائرة التي كانت تقله ، ثم ان ابنه الذي كان يعيش في بغداد والذي استقبلنا في بيته ، فرش أمام عينيّ والدي ورقة قال انها وصلت من ابن الشيخ الكبير رحمه الله وتحمل توقيعه ، قال لوالدي :

- إقرأ .

راح والدي يقرأ .

كنت أرى ملامح وجهه قد تغيرت ، لم يعد الوجه وجه والدي احمر ثم اصفر ثم أصبح كقطعة قماش سوداء ، اليدان ترتعشان ، والشفتان المزرقتان أصبحتا يابستين مضطربتين خشيت على أبي فأسرعت اليه . أخذت الورقة وقرأتها ، وبينما أنا اقرأ فيها نهض والدي وخرج دون أن ينبس ببنت شفة ، فرميت الورقة في وجه ابن الوكيل وخرجت خلف أبي ، و توفي والدي عند وصولنا الى أرض القبيلة مباشرة.

عندما دخل والدي المضيف الكبير وهو يترك السيارة التي نقلتنا من بغداد، كان يردد مع نفسه (نحن دفناه سوية)(*) ولم أعر كلامه إهتماماً لأنني أعرف ما كان يقصده ... دخل المضيف الكبير بعد أن وقف عند بابه ونظر اليه ملياً... مدد جسده المنهك على سجادة المضيف ، في المكان الذي قبض فيه الشيخ الكبير ، أغمض عينيه ، وراح في سبات خلته انه كان بسبب التعب ، إلا انني انتبهت بعد دقائق الى يده اليمنى التي كانت على صدره وقد سقطت الى جانبه ، فنهضت لأعدل من وضعية نومه وكانت المفاجأة ، كان جثة هامدة .

عرف القاصي والداني بموت والدي ، وجاء ابن الوكيل في اليوم الثاني لا ليعزينا بموت والدي وانما لينعي أبيه هو ، وأمر أن ترفع الاعلام والبيارغ بهذه المناسبة ، وأردف قائلاً :

ـ وبمناسبة موت أبي خيري الرجل الذي خدم الشيخ الكبير ووكيله رحمهما اللّه والذي كان وصيا ثقة على أموال الشيخ الكبير وابنه الذي يدرس في أرض الغربة .

بعدها سكت ابن الوكيل ، أقصد ابن شيخ سلف العماريين وبعد لحظات تابع ما بدأ به ، قال :

ـ رحم اللّه والدي وأبي خيري.

ثم صاح على رجل يرتدي بدلة افرنجية داكنة اللون كان يجلس في وسط الصف الجانبي للمضيف ، قال له :

ـ اقرأ يا رديف برقية ابن الشيخ الكبير .

نهض الذي لا نعرف عنه شيئا والذي ناداه ابن الوكيل بـ (رديف) وأخرج ورقة من جيبه ، هي الورقة نفسها التي قرأها والدي وتبدل لون وجهه ونهض على إثر قراءتها وغادر بيت ابن الوكيل ثم حصل الذي حصل فأختاره اللّه الى جواره رحمه اللّه ، وهي الورقة نفسها التي قرأتها أنا ، وراح هذا الشخص يقرأ.

بعد أيام من انقضاء مجلس الفاتحة ، رحت أدون في سجلي وما زالت ربطة العنق التي أرتديها سوداء اللون ، و ثياب أمي وأختي وزوجتي وكل نساء قبيلتنا سود حزنا على والدي لا على الوكيل ، دونت في السجل الآتي :

برقية ابن الشيخ الكبير :

توقف القلم عن الكتابة لحظة ثم خربش على الورق ما يشبه الهلالين ووضع بينهما العبارة التالية : (هذا ما زعمه الوكيل الجديد، كما زعمه قبل سنوات والده الوكيل الاول) ثم أكملت تدوين البرقية حرفيا كما قرأتها في بيت الوكيل الجديد في بغداد وكما سمعتها في المضيف الكبير، وكما سمعها كل من حضر : من ابن الشيخ الكبير رحمه الله الى أبناء قبيلتنا.... أنعي اليكم وكيلنا رحمه الله ، كان رجل صدق ورجل ثقة ، وأقيم عليكم وكيلاً لنا ابنه وفقه الله . التوقيع ابن الشيخ الكبير رحمه الله .

ودونت : تعالت اصوات الرجال الحاضرين في المضيف ، فمنها من أنكر ومنها من كان مؤيداً .

وأردف (رديف) قائلاً:

- هو توقيع ابن الشيخ الكبير عندما كان يراسل الوكيل رحمه الله .

عندها دخل مجموعة من الشباب لم نعرفهم ، قد وصلوا بسيارات غير سيارة ابن الوكيل يحملون الهراوات الى المضيف وحملوا كل من اعترض ورموه خارج المضيف ، وطلبوا منهم أن يغادروا أرض القبيلة وإلا ...!!!؟.

وطار الطير على رؤوس من بقي في المضيف ، وبعد لحظات قام الشخص الذي قرأ البرقية مرة ثانيه وطلب من الجالسين أن يقدموا التهنئة للوكيل الجديد .

تثاقل الجالسون أول مرة ، فقد كانوا مذهولين لسماعهم الخبر تبادلوا النظرات فيما بينهم ، وعندما شاهدوا أبا راضي يتقدم من الوكيل الجديد ليهنئه ، قام الجميع ليهنئوا الوكيل الجديد الواحد تلو الأخر، وعندما انتهى المهنؤون، تحرك الوكيل نحو باب

المضيف الكبير وخرج ليركب سيارته بعد أن ذكر أن مساعده هو أبو راضي .

كنت أنا وراضي نجلس قرب باب المضيف الكبير ، سمعته يقول بصوت خفيض بينه وبين نفسه إلا انه حاول ان يسمعني اياه :

- تم تسليم الراية من سارق الى سارق.

ابتسمت ، وكادت ضحكة عالية تفلت من فمي ، إلا اني كتمتها بصعوبة ، وقلت بنبرة الصوت الخفيض الذي تكلم به راضي رأيه :

- واللّه صحيح .

****

الورقة التاسعة:

مرت الأيام ثقيلة بعد موت أبـي الـذي فقـدت بموتـه رجـل ثقـة للأخبار علـى الرغم من أنها كانت قليلة ، وكانت أغلـب إجاباتـه علـى أسئلتي هو أنـه سـيخبرني في المسـتقبل . فهـل كـان والـدي يعرف أنه سيموت مبكـراً ولا مسـتقبل لأسـئلتي ، أم انـه كـان يريدني أن لا أعرف ما كنت أبحث عنه ؟

مرة، وأنا أسأله بعض الأسئلة ، قرأ أمامي من سورة(المائدة) :

((يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشـياء إن تبـد لكـم تسـؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبـد لكـم عفـا الله عنهـا والله غفـور حلـيم ﴿﴾ قـد سـألها قـوم مـن قـبلكم ثـم أصـبحوا بهـا كافرين...)).

كـل شيء كان وارداً ، إلا أن المهم في الأمر أن والدي لم يخبرني أجوبة الأسئلة الكبيرة التي كانت تجول في تفكيري .

قلت مع نفسي اذ لا غيرها يسمعني في غرفتي العلوية: سأعتمد علـى راضـي في معرفـة تلـك الأجوبـة ، سـأعلمه كيـف يكثـر الأسئلة ، وكيف يطرحها على والده ليحصـل علـى الأجابـة ، إلا انني وجدت أن هذه الفكـرة فاشلة من الأساس ولا جـدوى منهـا . إذ تساءلت : من يضمن أن أبا راضـي سـيكون صـادقاً في أجوبتـه ؟ ومن يضمن أنه كان يعرف بمجريات الأحداث كمـا كـان أبـي القريـب مـن الشـيخ الكـبير، و مـن ثـم وكيلـه شـيخ سـلف العماريين ؟

تركت الفكـرة وقد قر رأيي على فكـرة أخـرى . رحـت أرسـم مخططـا لهـا علـى صـفحات سـجلي . وأكـدت مـع نفسـي : اذا

اكتملت الفكرة من كل جوانبها في سجلي أخبر راضي بها وأطلب منه أن يشاركني في تنفيذها .

فتحت السجل ، ودونت في يومه وتاريخه أسماء كنت أعرف أنها ستساعدني على معرفة الحقيقة ، وهي كما دونتها في السجل : العم "نهر" أخي الشيخ الكبير الذي طرد من قبل الوكيل الأول ورمي بأقذع التهم لأنه جاهر بقول ما لا يجب قوله بوجود الوكيل . ثم وضعت اسم الشيخة "وردة" زوجة الشيخ الكبير التي أخذَتها النساء اللائي جاء بهن القاضي من بغداد ولم تعد الى القبيلة مرة أخرى ، ثم وضعت اسم أم الشيخ الكبير التي لم أعرف عنها شيئا ، بعدها رسمت حول الاسم دائرة ورسمت سهماً وكتبت تحت السهم وبين هلالين (اذا التقيت بها).

ثم دونت الآتي : الطلب من راضي أن يوافقني الخطة .

ثم كتبت : اذا وافق راضي سنقدم طلبا الى وزارة التربية ليتم نقلنا الى بغداد قريبا من العم نهر وزوجة الشيخ الكبير . وان لم يوافق سأطلب أنا لوحدي النقل ، ولا بأس أن أصطحب زوجتي معي لانها ستفيدني كثيراً مع زوجة الشيخ الكبير التي عاقبها الوكيل لكذبها ، بأن حرمها من حقوق المشيخة بعد أن جاء بشهود زور وبالاتفاق مع أم الشيخ الكبير ، وشهدوا بأن وردة لم تكن زوجة للشيخ الكبير، بل هي خادمته الخاصة .

بعد ان دوّرت الفكرة في رأسي من كل جوانبها ، إتخذت القرار بتنفيذها حتى لو تطلب الامر أن أكون لوحدي .

في اليوم الثاني ، وفي غرفة المدرسين رحت أشرح لراضي الفكرة بعد أن اختمرت جيداً في رأسي.

كان جالسا أمامي كتلميذ مجتهد يحاول جاهداً أن يستوعب كل ما أقوله ، وعندما أنتهيت ، سألته :

ـ ها ... ما رأيك ؟

نظر في وجهي مليا ، كانت ابتسامة صغيرة مرسومة على شفتيه ، حرك يديه في الهواء ، ثم قال :

ـ لندق الجرس .

واتجه الى صوب المفتاح الكهربائي للجرس وضغط عليه فإمتلأت كل جوانب المدرسة برنينه ، ثم رفع اصبعه منه وانسل خارجا وأنا أنظر اليه .

بقيت لوحدي في الغرفة... لا أعرف ماذا أصنع بعد أن تركني راضي دون اجابة ، ولا تعليق ، حتى انه لم يرفض الفكرة وفي الوقت نفسه لم يوافقني عليها .

تساءلت :

ـ هل في خطتي ما يشير الى فشلها ؟ أم انه أصلا لم يوافق على القيام بتنفيذها معي؟

وانتظرته ليعود بعد انتهاء الدرس ، يجب أن أقنعه بفكرتي . يجب أن يشاركني راضي الصديق الصدوق بالفكرة وتنفيذها يجب أن تكتمل الحقيقة كلها . سأثير أمامه كل القضايا المشكوك فيها ، سأذكره بما قاله في المضيف الكبير عندما سمى ابن الوكيل سارقا يسلم لسارق ، سأسأله ان كان يعتقد أن أبيه هو سارق أيضا ، وأسأله عن أبي ، وما رأيه فيه ، وهل يعده سارقا أيضا ؟

اسئلة كثيرة دارت في رأسي وأنا جالس أمام شباك الغرفة أنظر الى الأرض السبخة التي تسمى حديقة ، حتى الأشياء تغيرت أسماءها ، لم يبق شيئا لم يتبدل ، الصادق أصبح كاذبا والكاذب سمي صادقا . والورقة العراقية الصنع جاءت مكتوبة

من لندن . وابن الوكيل أصبح وكيلاً ، وزوجة أبي الثانية لم أعرف عنها شيئاً بعد أن تزوجت غير أبي وأخذت القصر الذي كانت تسكنه والذي اشتراه والدي هدية لها بعد ليلة قضاها في فراشها . فيما كانت أمي وابنة عمه في فراشها تفكر فيه ، وبمن يغسل ملابسه... وبنوعية أكله... لقد تغير كل شيء ... أخذت معها الحلي الذهبية التي كان يغدق عليها لتبقي تبيع جسدها الشاب لرجل عجوز مثله ، لقد تغير كل شيء.

وعاد راضي من درسه ... وأعدت مرة ثانية عرض الفكرة أمامه وانتهت الاستراحة بانتهاء عرض الفكرة ، ونهض راضي ليضغط على الزر الكهربائي للجرس ، فأسرعت الى منعه ، وأمرته أن يجلس ، فأنا المدير وأنا المسؤول عن الدوام . ثم خرجت وصحت على الطلاب الخمسة وطلبت منهم أن يذهبوا الى بيوتهم.

عندما عدت الى الغرفة وجدته يبتسم ، سألني :

- ماذا تريد بالضبط؟

قلت له :

- الآن عدت لي الصديق الأمين على أسراري كما كنت سابقاً.

قال والابتسامة ما زالت على شفتيه :

- إلا انني سأساعدك دون أن أنتقل الى بغداد.

سألته مستفسراً:

- كيف ذلك؟

قال :

ـ سأبقى هنا لأعرف أكثر مما كنت أعرفه من والدي ، أو من بعض مريديه الذين أحاطوا به طمعا بماله بعد أن أصبح مساعداً للوكيل الجديد.

قلت مندهشا:

ـ إلا انهم لا يعرفون شيئاً ؟

ابتسم وقال :

ـ أنت الذي لا تفقه شيئاً ... أنسيت أنهم كانوا من العوائل الساكنة في بغداد ؟

اجبته :

ـ أعرف ذلك .

سألني :

ـ الم يكونوا من جماعة أخي الشيخ الكبير، العم نهر ؟

أجبته :

ـ نعم... انهم كذلك.

قال :

ـ وأكثر من ذلك... ان أغلب العوائل التي عادت الى أراضيها بعد أن ارتحلوا بعد المحنة هم من السلف الذي كانت منه زوجة الشيخ الكبير التي ادعت حملها .

وهويت على المنضدة الخشبية التي أمامي بضربة قوية من كفي :

ـ لعنة اللّه على الشيطان ...لقد غابت عني هذه الامور .

فقال:

ـ إذن سأكون مفيداً لك هنا أكثر لو كنت معك في بغداد.

لم أقل له شيئاً ، ورحت أفكر بالأمر ملياً ، ثم قلت له:

ـ إلا انني أرى أن انتقالك معي الى بغداد أكثر فائدة ، خاصة اننا نستطيع زيارة الأهل هنا ، وعندها يمكن أن نحصل على ما نريد ... ان نحصل عليه من هذه العوائل العائدة .

إلا انه أصر على البقاء ... وقال لي :

ـ توكل أنت على الله وأطلب النقل ، وسأكون أنا ذراعك الأيمن هنا .

وذهبنا الى بيتينا بعد الظهر بساعتين .

***

الورقة العاشرة:

وأنا أقدم طلب نقلي الى بغداد ، وأعرف انه لا يتم إلا بعد انتهاء العام الدراسي الحالي . حدث على أرض قبيلتنا . والأدق على أرض عشيرتنا وفيما بيننا . و ما هو أكثر غرابة و ما لم يكن في الحسبان ، وهو طلب الوكيل الجديد يد رضية أخت راضي الصبية التي لم تكمل الخامسة عشرة من عمرها زوجة له وقبول والدها ، ورفض أخيها راضي هذه الزيجة.

كان راضي رافضا لفكرة زواج أخته رضية في هذا العمر ومن ثم – كما قال لي – يرفض أن يتزوجها الوكيل الكذاب والذي يكبرها بأكثر من أربعين عاماً .

قال لي غاضباً :

- سأجعل من أرض قريتنا مسلخا له ولأعوانه أن تطلب الأمر .

وعندما طلبت منه أن يهدأ ، قال :

- وكيف تريدني أن أهدأ؟... ها ؟

سكتَ بعد أن سمع طرق ساعي المدرسة، جميل ، باب الغرفة فصحت :

- تفضل يا جميل .

دخل جميل وقال:

- أن ابن الوكيل ، أقصد الوكيل الجديد ، يطلب أن يرى راضي.

صاح راضي مهتاجا :

- اطرده ... وألا سأبتلي به ؟

طلبت من جميل أن يسمح له بالدخول .

غضب راضي ، وازداد هياجاً ، ونهض من مقعده وحاول الخروج من الغرفة، فمنعته ، وأعدته الى مكانه .

دخل الوكيل الجديد الغرفة ، كان في منتصف العقد الخامس من عمره ، بدين أكثر من بدانة القاضي اللحيم الذي كتب وصية الشيخ الكبير، قصير القامة ، أسمر الوجه ، أصلع فيما شعر يديه كثيفا كقرد ، ويمكن أن تطبق عليه مقولة الكاتب الانكليزي الساخر برنارد شو عندما سألته إحدى نساء الصالونات الأرستقراطية هناك عن صلعته وكثافة شعر لحيته أجابها : وفرة في الانتاج وسوء في التوزيع . وهكذا كان الوكيل الجديد ، فيما ترتسم حول عينيه هالات سود . وكانت رائحة زكية تنتشر حوله ، وتسبقه الدخول ... القى التحية ... لم يجبه راضي بل أشاح بوجهه جانباً ، قلت له تفضل بالجلوس ودون أي مقدمات سألته :

ـ ماذا تريد ؟

انتبه الوكيل الجديد الى أنه غير مرحب به بيننا من خلال نبرة صوتي وسؤالي المباشر له... نظر الى راضي ، فرآه ما زال مشيحا بوجهه عنه ، ثم نظر نحوي فوجدني أنتظر جوابه . عندها قال بإستعطاف :

ـ أستاذ خيري...أنا دخلت من الباب ، فلماذا يرفضني ؟

انتظر مني الجواب ، وعندما لم أقل شيئاً تابع بنفس النبرة:

ـ طلبتها على سنة الله ورسوله.

ادار راضي وجهه بقوة وبسرعة وكأنه لدغ ، وأراد أن يتكلم فصحت به :

ـ اسكت يا راضي.

أعاد وجهه الى الجهة التي كان مشيحاً اليها . تابع الوكيل قوله :

ـ وان والدها قد قبل الطلب ، وأنتم أبناء عشائر وتعرفون الاصول عندما يتخذ الأب قراراً فعلى أبنائه الطاعة .

صاح راضي كالملدوغ بين أنفاس متسارعة كأنها تسابق الكلمات:

ـ وهل تريد أن تعلمنا الأصول يا ابن المدينة؟

صحت براضي ناهراً :

ـ ليس هذا تفاهما ، لتكن أعقلنا – وأنا أريد أن أقول له كن أعقل من الوكيل الجديد

ـ اسكت يا راضي ، الرجل طلب شيئا وعليك أن تجيبه ، كل طلب وله اجابة .

لذنا بصمت عميق ، ومرت دقائق دون أن تقال كلمة واحدة . وكان رأس الوكيل يدور بين راضي و بيني ، فيما كان رأس راضي متحولا الى الجهة الاخرى ، وقد انفتل جسده على كرسيه تحركت قليلاً على كرسيي ، وقلت موجها كلامي الى الوكيل الجديد:

ـ الا ترى أنها أصغر من ابنتك ؟

أجاب :

ـ لا يقف العمر حائلاً دون الزواج.

قلت له :

ـ هذا صحيح ، ولكننا في عصرانتشار التعليم ، وقد اطلعنا على الأمور الصحيحة ، فكانت تؤكد على تناسب العمر .

سألني :

ـ وهل تظن أن علماء ديننا مخطئين في موافقتهم على هذا الزواج ؟

ابتسمت وقلت له:

ـ وهل يهمك أمرهم ؟

وأنا أعرف أنه أبعد من أن يهتم بأمر الدين .

قال متصنعا الخشية:

ـ نعم ، انهم الأوتاد في أرض الله .

عندها دخل الغرفة الساعي جميل وهمس في أذني كلاماً استفزني . إلا انني استطعت أن أسيطر على نفسي ، وقلت للوكيل الجديد:

ـالسيد الوكيل أطلب من حمايتك أن يخرجوا من المدرسة ، انك في أمان بيننا.

ارتبك بادئ الأمر ، ثم خرج اليهم ، وبعد دقائق عاد الى الغرفة بعد أن اطمأن على خروجهم من المدرسة .

سألني مبتسما قبل أن يضع جسده اللحيم كجسد القاضي على الكرسي :

ـ لم نسمع رد الأستاذ راضي ؟

تحرك الاستاذ راضي في كرسيه ، وعدل من جلسته ، وقال مخاطباً الوكيل بغضب بان على كلماته :

ـ أتريد جوابي ؟

و بنبرة غير عدائية بدا واضحا لخيري ولراضي أنه لا يريد ألا أن يديم علاقته بهم ، قال:

ـ هذا مهم عندي .

صاح راضي مهتاجا:

ـ خذ حمايتك وأخرج من أرضنا وإلا فأنا أستطيع التعامل مع هؤلاء الغجر ، وأعلى ما في خيلك اركبه ، أخرج قبل أن أيتّم بناتك؟

شحب وجه الوكيل وبدى مثل تمثال من الشمع المتسخ ، واخذ يدير عينيه بيني وبين راضي ، والحق أقول أن انزعاجي منه ليس متعلقا بهذا الجدل الديني بقدر ما هو متعلق بصفاته وأخلاقه وسلوكه وكبر سنه . اذ رأيته شخصا متعاليا ومزهوا بنفسه أكثر من اللزوم.

طلبت من راضي أن يهدأ:

ـ ان الرجل في حمايتنا ، هيا عد لمكانك .

نهض الوكيل وخرج من الغرفة ، ثم من المدرسة ، وركب سيارته الفارهة ويمم صوب بغداد . فيما تبعته سيارات حمايته . عندها غادرنا أنا وراضي المدرسة .

كان هذا اليوم نحسا ، أو ـ كما قلت مع نفسي ـ ان الخطة التي شرحتها لراضي هي النَحَسَة ... ضحكت في سري ، قلت مع نفسي أن كل ذلك تخيلات من أتعب تفكيره . إلا أن الأمور لم تهدأ عند هذا الحد ، بل بدأت مرة ثانية ، ولكن في بيت أبي راضي .

جاءت شقيقتي زوجة راضي مسرعة ، وطلبت مني أن أدرك راضي وأبيه ـ وأكدت بصوت عالي ـ انهما يتشاجران.

أسرعت أنا وزوجتي راضية الى بيت أبي راضي القريب من بيتنا . كانا متشابكين بالايدي ، فيما كانت رضية تبكي وتحاول أن تفرق بينهما وهي تقول لراضي لتقنعه : أنا موافقة يا راضي أنا موافقة على الزواج .

فيما راحت أم راضي العجوز المقعدة على سريرها المصنوع من الجريد (*) الذي كان يتذكر يوم ميلاد راضي عليه تضرب فخذيها بكفيها وهي تصرخ مولولة ، دخلنا الغرفة أنا وزوجتي اتجهت لراضي واحتضنته من خلفه ، استجمعت قوتي وحملته بين ذراعيّ وأسرعت به خارجاً . أراد والده أن يتبعنا وهو يسب ويشتم ويتهدد ، فمنعته ابنته راضيه عن الخروج من الغرفة التي كانت ميدانا لتعاركهما .

أوصلت راضي الى برجه العاجي في الطابق الثاني . وطلبت منه أن لا ينزل ، وقلت له مؤكداً :

- اعتمد على صديقك ، سأحل أنا المسألة .

وعدت الى أبي راضي الهائج كثور خرف ، و ما زال صياحه عالياً ، فيما كانت ابنته راضية وهي تحمل على صدرها ابننا الثالث الرضيع الذي أخذ بالصراخ ، تقول لأبيها :

- لم يكن راضي وحده هو الذي لم يقبل ، أنا أختها الكبيرة لا أقبل يا أبي أن ترميها هذه الرمية ، ماذا فعلت بك كي تزوجها لرجل بعمرك ؟

كان هو ينظر اليها دون كلام ، كان يحترمها ، خاصة بعد أن تزوجت وأنجبت ، أما راضي فهو ابنه الكبير ، وكان يتباهى به في المضيف أمام الرجال وفي كل مكان وكان يسمع كلامه على الرغم من انه ابنه ، و يقول أنه متعلم ، ولا أعرف كيف حدث كل هذا؟

ونحن نقنع الأب ، نزل راضي من غرفته بعد أسوء لحظات عذاب مرت به – كما أخبرني ـ ووقف سادا باب الغرفة ، وقال بعصبية تبينتها من حدة الكلمات التي خرجت من فيه مزمجرة:

ـ هذا آخر كلام لي ... زوّجها له وسأعيدها اليك أرملة قبل أن تصل الى بيته .

وخرج .

هنا بالضبط ، أطلب منك أيها القارئ اللبيب – ولأول مرة ـ أن تتصور أو تتخيل مدى قوة وقع هذه الكلمات التي تفوه بها راضي ، ليس على أبيه فقط بل علينا جميعا . اذ لم نكن نعرف مدى قوة وخبث هذا الوكيل المديني الذي يحميه شلة من الرجال من أصحاب البدلات والنظارات السود . إلا أن الحق يقال فهم لم يحملوا أية قطعة سلاح بيدهم أو تحت ثيابهم .

كانت هذه الكلمات هي المفتاح الذي سأبدأ به كلامي مع أب زوجتي بعد أن خيم الصمت في الغرفة ، وشلت كل حركة منا نحن الموجودين فيها ، كان تهديداً مباشراً ، وكان أبو راضي يعرف جدية كل ما يقوله ابنه منذ أن كان طالبا في الجامعة وكان الأب يأخذ كلامه على محمل الجد ، وكان كلام راضي هو الصحيح دائما ، لهذا كان أبوه يأخذ به ، وينفذه وعندما أصبح مساعدا للوكيل لم يتدخل راضي بهذا الشأن ، ولم يقل شيئا ولا خاض فيه .

اذن سيكون زواج ابنته رضية فتحا لباب إسالة الدماء بين أبناء القبيلة الواحدة ، ومن ثم سجن وربما أعدام ابنه راضي ، وهو لا يريد ذلك ، كل الذي كان يريده – هكذا قال لي ولراضية زوجتي بعد أن اختلى بنا في غرفة أخرى من البيت ـ ان تتوطد علاقته بالوكيل ، وأن يشترك راضي أيضا في هذه العلاقة

خاصة وأن الوكيل لم ينجب ولدا من زوجته الاولى ، كانت كل ذريته اناثاً ، و تساءل: لماذا يريد راضي أن يهدم ما بدأت ببنائه ؟

ألم يكن ذلك لفائدته وفائدة أبنائه ؟ ألم يكن لفائدة رضية ؟

أم تراني قد أخطأت يا خيري؟

لم أجبه ، وانما تحدثت راضية وهي تهدهد ابننا الرضيع على صدرها وتقبل كل شيء من جسم والدها تستطيع الوصول اليه حتى أقدامه التي امتلأت راحتيها بالشقوق: أبي انك لم تخطئ ، إلا أنك لا تريد من هذا الزواج أن يسيل فيه الدم ، ويتحول الفرح الى حزن ؟

وبعد حوار طويل ، اقتنع أبو راضي برأي راضي ، عندها قالت راضيه وهي تشاطر طفلها البكاء و العويل:

- سيأتي راضي ويقبل اقدامك ويرضيك .

***

الورقة الحادية عشرة:

لم يرجع الوكيل الجديد مرة أخرى الى أرض العشيرة ، إلا انه كان بين فترة وأخرى يأتي الى مضيف والده في الجانب الاخر من النهر ، مضيف سلف العماريين ، ويبقى عدة ساعات جالساً فيه هو وحمايته ، ينتظر أبناء سلفه ليقدموا له آيات الولاء ، ولما لم يحضر فيه أحد سوى بضعة رجال من كبار السن ليسلموا عليه كان هو يستعجل الرجوع الى بغداد موصياً سركاله (*) بعض الوصايا ، ومن ثم – كعادته - يكيل اللوم والعتاب لأبناء سلفه الذين لم يحضروا ليسلموا عليه ، فكان السركال يقسم له بروح الشيخ الكبير انهم خارج المنطقة ، أو انهم يعملون في الارض . ثم يوصيه بأن لا يكون متسامحاً معهم ، خاصة أن دَينهم من حق سلف العماريين قد أصبح كبيراً . بعدها يصعد سيارته ويمضي الى بغداد وسيارات الحماية تتبعه .

أما مضيف الشيخ الكبير فلم يصله بعد أن وصل تهديد راضي اليه كما تناقلته بعض الألسن المتدربة على نقل الكلام . وكان راضي هو الذي رغب بذلك ، إلا انه كثيراً ما كان يرسل بطلب أبي راضي ليسمعه كلاماً قاسياً عن عدم استعماله الشدة والقسوة مع أبناء القبيلة في جمع حق المشيخة ، ويؤكد له قائلاً:

- انها أمانة يا أبا راضي .

ويسكت ، ثم يؤكد قائلاً :

- ماذا أقول لابن الشيخ الكبير المتغرب في بلاد الغربة – فرج اللّه عن غربته - ليكمل دراسته عندما يسأل عن أموال أبيه الشيخ الكبير ...ها ؟

وما كان من أبي راضي إلا أن يهز رأسه موافقا ، ثم يرفع يديه داعياً اللّه أن يحفظ ابن الشيخ الكبير ويفرج عن غربته ، وأن يعيده سالماً الى أرض قبيلته .

هكذا كانت تدار الأمور بعد تهديد راضي للوكيل الجديد ولمن يقف معه وليجعل أرض القبيلة غارقة بالدماء... وهكذا راح الوكيل يسب ويلعن أبناء القبيلة أمام أبي راضي عندما كان يستدعيه الى بغداد في بعض الأحيان في الفترة الاخيرة ويؤكد له القول صارخا بوجهه : صغيرهم وكبيرهم ـ وكان يقصد أبا راضي وابنه راضي وخيري

ـ لأنهم يسرقون حق ابن الشيخ الكبير وهو غائب عنهم في ديار ليست دياره ، وناس ليسوا أبناء عمومته ، ولا حتى لغتهم تشبه لغته ، انه غريب يا أبا راضي – يؤكد لاستعطافه ـ ويجب أن نقوم مقامه هنا لحين عودته . ثم بهدوء وتمسكن يقول :

ـ أليس كذلك يا عمي أبا راضي ؟

ظلت الأمور تجري هكذا بين الوكيل وأبي راضي حفاظاً على أموال ابن الشيخ الكبير من أبناء قبيلته كما كان يدعي . وهكذا ـ أيضاً ـ ظلت الأمور تجري بين الوكيل الجديد ، بعد أن أصبح شيخاً لسلف العماريين بعد موت أبيه ، وبين سركاله في مضيف العماريين الواقع في الضفة الأخرى من النهر . وكذلك ظلت العلاقة شبه متوترة بين أبي راضي وابنه ، الذي (فلكش)(*) ـ كما قيل وقتها ـ زواج الوكيل من أخته رضية ، وقد أخذت السن أبناء القبيله كلها ، وعلى كل أرض يسكنون عليها تلوك الحكاية في كل مكان وزمان ، أصبحت كالهواء فمنهم من أعترض على الوكيل الجديد ووقف بجانب راضي ضد أبيه ولكن بالكلام المهموس ، اذ كانوا يرددون :

ان الوكيل لم يقنع بالاستيلاء على حق الشيخ الكبير بل أراد أن يستولي على بنات القبيلة . ومنهم من وقف ضد راضي ـ خاصة الرجال المسنين ـ بجانب أبيه ، وأيضا بالكلام المهموس فقط ، وهم يرددون كلاما مفاده : انه طلبها على سنة اللّه ورسوله .

في ظهيرة يوم فائر ، والشمس في كبد السماء ، والأجساد تنز ذلك السائل الدبق ، والهواء ساكنا ولا تلوح فيه نسمة باردة واحدة ، وقف راضي وهو يرتدي لباسه الداخلي القصير حد الركبة في باب غرفة الخطار التي كان يجلس فيها والده ، سادا الهواء عنه والتي عجزت مبردة الهواء التي تعمل على أن تلطف من حرارته ، وقال دون أن يرمي السلام عليه :

ـ قدمت طلبا للنقل الى بغداد ، وسأرحل مع زوجتي وأمي ورضية .

قال ذلك بنبرة حادة وترك الباب وعاد الى غرفته ولبس دشداشته البيضاء الخفيفة وخرج من الدار .

ران صمت قاتل في غرفة الخطار ، كان ثقيلا بثقل الهواء ... تململ أبو راضي على البساط عدة مرات ، تأفف ونفخ الهواء الثقيل من فمه ضجرا ، واحساس طاغ بأن ابنه البكر تركه على حافة هاوية عميقة مظلمة ، ثم نهض ودخل غرفة زوجته التي أقعدها مرض المفاصل ، قال بنبرة غاضبة:

ـ ماذا جرى لابنك ...ها ؟ كسر كلامي وهدد الوكيل وفلكش الزواج ... ماذا يرد بعد ذلك ...ها ؟

لم تجبه بكلمة ، تلجلجت عينيها بالدموع ، فضاقت واستحالت الى ثقبين أسودين غيّم فيهما كل شيء، و راح أنينها شبه المكتوم يتصاعد و يخرج الى باقي غرف ومشتملات البيت وشيئا فشيئا أصبح كلاما حزينا ، ثم شعرا مما تردده النساء على خيبة أملهن بابنائهن .

جاءت زوجة راضي رسمية ورضية الى غرفة العجوز قعيدة الفراش بعد ان سمعتا النحيب المتصاعد ، وقفتا عند الباب قالت رسمية تكلم ام زوجها المقعدة:

ـ لماذا تبكين يا عمه ، ان بغداد ليست بعيدة ، وأنتم تعرفون أن راضي اذا قرر شيئا ينفذه .

رد أبو راضي متأففا :

ـ لقد أقنعه خيري بذلك .

ردت رسمية عليه وقد سمعت أن والد زوجها أبو راضي يحمّل أخيها سبب نقل راضي :

ـ لا يا عمي لا تظلم بختك ... قدم خيري طلب النقل منذ نصف السنة ولم يكن راضي موافقا عليه ، إلا ان ما حدث بخطبة رضيه هو السبب... وأنا بدأت أخاف على راضي بعد أن سمع الوكيل تهديده .

عند هذا الحد تركت رسمية الكلام مع والدي زوجها ، وخرجت من الدار وهي توصي رضية ان تضع ابنيها النائمان نصب عينيها.

عندما دخلت دار والديها التقتها راضية حاملة (جك)(*) الماء المثلج مع قدحين ، وعرفت كلا المرأتين مراد الأخرى ، فأومأت راضية برأسها مشيرة الى غرفة راضي فوق السطح ... صعدتا الى الغرفة، وهناك جلستا كل قرب زوجها .

كانت الغرفة تئن تحت صمت ثقيل والفضاء الخارجي يئن تحت شمس لاهبة ، ومبردة الهواء تجهد نفسها بلا فائدة ، والعرق يتصبب على الوجوه وتحت الدشاديش .

راحت اقداح الماء المثلج تتحرك من يد الى يد وهي تنقل الماء من (الجك) الى الافواه اليابسة والوجوه المحترقة من شدة حرارة الجو .

لم ينبس أحد ببنت شفة يابسة ... وكانت العينان من كل وجه هما المتحركتان الى اللا مكان ...

أنهد جدار الصمت بسؤال راضي لزوجته رسمية :

ـ أين البنات؟

شعرت رسمية بكلام راضي يأتيها منكسراً خاوياً لا كما عهدته ، فردت بلا تكلف وبلا مبالاة قائلة :

ـ انهن نائمات .

وعاد الصمت مرة أخرى ليخيم في جو الغرفة ، حتى بدده قول راضي وهو يسأل رسمية :

ـ وأين رضية ؟

ردت عليه كردها الأول :

ـ مع البنات.

كان كل من في الغرفة لا يريد الكلام ، وانما كان راضي يجبر نفسه على أن يقول شيئاً ، الا ان رسمية هي الأخرى لا قِبَل لها بالحديث في أي موضوع بعد أن سمعت قرار زوجها بالانتقال الى بغداد ... فهي بين نارين ، أما القبول بالرحيل كما رحل الأخرون والابتعاد عن أرض عشيرتها ومعارفها ، أو رفض الرحيل ، عندها

تفقد أعز رجل في حياتها ، فقررت الرحيل مع زوجها ، وأكدت مع نفسها أن المرأة تتبع الرجل أينما ذهب؟

وفي الوقت نفسه كانت رضية تفكر في الأمر ذاته ، خاصة بعد أن عرفت أن أخاها سيأخذ معه أمهما المقعدة ، واتخذت القرار ذاته الذي اتخذته حماتها وهو أن المرأة تبع للرجل أينما كان .

وبصوت واحد كسر الصمت الجاثم في الغرفة ، قالت المرأتان :

ـ نحن معكما .

***

الورقة الثانية عشرة:

انتقلت وعائلتي المتكونة مني ومن زوجتي راضية وأطفالي و والدتي المرأة العجوز المنكسرة بفقد زوجها وابن عمها الذي عرفته أكثر من خمسين سنة منذ أن كانت طفلة تحبو على الأرض الى أن تذكره الله وأخذه الى جانبه ، وعائلة راضي المتكونة من راضي وزوجته رسمية وابنتيه وأمه المقعدة وأخته رضية . استأجرنا داراً في إحدى ضواحي بغداد التي ضمت الكثير من أبناء قبيلتنا الذين إرتحلوا بعد المحنة ، وسكنا فيها كلينا فيما جاء اثنان من مدرسي بغداد الى المتوسطة الخاصة بأبناء العشيرة ليدرسا فيها ، بعد أن أصبح عدد طلبتها أربعة لترك الطالب الخامس لها بعد رسوبه في امتحانات نصف السنة ، فما كان من والده مشغل ماكنة سحب الماء من النهر الى الأراضي إلا أن يأمره بترك المدرسة ومساعدته في تشغيل الماكنة لكثرة الطلب على مياه السقي بعد أن أمر الوكيل الجديد مساعده أبي راضي أن يطلب من أبناء العشيرة زراعة كل الأرض المتروكة بسبب ارتحال أصحابها ، لأن ابن الشيخ الكبير – فرج الله عودته الينا سالماً كما ردد الوكيل – يريد ذلك .

في ليلة أول يوم لنا في الدار الجديدة ، وبعد أن أتممنا تنظيم ما معنا من آثاث ، جلست على سرير نومي ، فيما الليل يملأ الفضاء المحيط بدارنا ،و كانت زوجتي راضية تغط في النوم بسبب التعب الذي أصابها جراء تنظيم الآثاث ، وبدأت أدون في سجلي الذي انتقل معي، الآتي من الوقائع والأحداث والأقوال:

هذه أول ليلة لنا في هذه الدار التي أصبحت دارنا ، وبتاريخه ووقته أذكر انني سألت عمي أبي راضي عن الوكيل الجديد وهل كان يعرفه سابقاً ، أم لا ؟

قال لي مساعد الوكيل الجديد أبو راضي وأنا في بيته ، وكان راضي جالساً معنا ، فيما كانت راضية زوجتي ورسمية شقيقتي وزوجة راضي في غرفة المرأة العجوز المقعدة:

ـ نعم .

وسكت كما كان يسكت أبي رحمه اللّه .

سألته :

ـ وماذا تعرف عنه ؟

رد علي قائلاً :

ـ لقد ولد في بغداد عندما كان والده – ابن شيخ العماريين في ذلك الوقت ـ شاباً يكمل دراسته هناك .

سأله راضي:

ـ وهل أكمل دراسته ؟

رد عليه والده بهدوء العارف بكل شيء:

ـ حسب علمي أن والده شيخ العماريين وقتها غضب لزواجه وأعاده الى أرض السلف . وكان هذا الشاب الذي أصبح فيما بعد شيخاً للعماريين ووصيا للشيخ الكبير رحمه اللّه على أمواله وابنه الذي في دار الغربة ، يذهب الى بغداد دون أن يعلم به والده . وبعد سنتين عرف الوالد ذلك ، فما كان أمامه إلا أن يقبل في أن يأتي بزوجته الى أرض العماريين ويقيم في بيت والديه ، ألا انه رفض وظل في بغداد .

سألت عمي، أبو راضي ، وكنت أريد أن أحصل على معلومات أكثر :

- ولكن كيف أصبح ذلك الشاب شيخاً لسلف العماريين ؟

أجاب كمن في امتحان :

- عندما مات أبوه شيخ العماريين عاد لوحده الى أرض السلف وأصبح هو الشيخ على السلف ، انه شيخ ابن شيخ.

سأله ابنه راضي مستفسراً :

- وزوجته وابنه هل بقيا في بغداد ؟

أجابه والده :

- نعم ، ولحد هذه الساعة ، وأنتم تعلمون أن الابن البغدادي أصبح شيخاً على سلفه ، ووكيلاً لابن الشيخ الكبير فرج الله غربته ، وهو يسكن بغداد .

وفي الليلة الثانية وجدتني في هدأت الليل أخرج سجلي من الديلاب الخشبي وأدون فيه :

اليوم خرجنا أنا وراضي الى مقهى المحلة التي يقع فيها دارنا وتعرفنا على صاحبها ، كان من أبناء قبيلتنا ، وليس من عشيرتنا ، انتقل الى بغداد بعد المحنة ، وتجاذبنا أطراف الحديث وكان يعرف والدينا مساعدي الوكيلين .

كان الرجل ، كما شعرنا وقتها ، يخفي شيئاً في نفسه لا يريد أن يخبرنا به . كان ضحية من ضحايا المحنة ، إلا انه والحق يقال كان كريماً معنا ورفض أن يأخذ ثمن الشاي الذي شربناه بعد أن عرف منا صحة قصة رضية و الوكيل الجديد الذي راح يشتمه ، وعندما انتبه الى أنه يجلس مع رجلين من أبناء مساعدي الوكيلين اعتذر ، قال مبتسما:

ـ ستسمعون ذلك من جميع رواد المقهى ، ومن جيرانكم ومن أبناء المحلة .

قلت له لأطمئنه :

ـ لا عليك ، نحن لا نأبه بذلك ... ثق نحن معكم .

في اليوم الثالث ذهبنا عصراً الى المقهى ، وكان أملنا في أن يساعدنا الحاج عبد – صاحب المقهى – في الوصول الى غايتنا وهي اللقاء بالعم نهر أخي الشيخ الكبير. قال لنا بعد أن سألناه :

ـ هذا أمر بسيط ... سيأتي نهر يوم الجمعة الى المقهى ، لان ذاك اليوم موعده هنا مع بعض معارفه من أبناء القبيلة .

انتظرنا يوم الجمعة والوقت يمر ثقيلاً ، والانتظار ممل كما انتظر جدنا اسماعيل سكين أبيه ابراهيم . وجاء ذاك اليوم المعهود ، وقابلنا العم نهر ، رحب بنا وقال مبتسماً :

ـ لا أسألكم عن أحوالكم لانني أعرف بها أول بأول ، وأعرف الدار التي استأجرتموها في المحلة ، ورحم اللّه الذي مات وهدى اللّه الحي من أبناء القبيلة الى سواء السبيل .

كان العم نهر بعد موت أخيه الشيخ الكبير ، وادعاء زوجة الشيخ الكبير بأنها حامل من الشيخ الكبير ثم تبين خلو رحمها من أية نسمة ، قد طالب بالمشيخة ، إلا أن سرعة شيخ العماريين بأظهار ورقة الوصية ، ومن ثم وقوع المحنة ، وتفرق أبناء القبيلة في أركان الأرض الأربعة ، جعل صوت شيخ العماريين هو الصوت العالي ، فما كان منه ومن والدي ومن اتبعهم إلا أن يسبوه ويشتموه ويوصمونه بالكذب بعد أن قال بعقم اخيه ، فبقي في بغداد ، بعد أن كان نزيلها منذ أن كان والده هو الشيخ الكبيرالعاشر، ولم يفقد الصلعة التي ورثها من والده الشيخ

الكبير و التي تجمل رأسه ، أو يفقد حس الدعابة الذي كان يزهو به بعد أن وصم بشتى النعوت الشيطانية.

كان أنيقاً ، اناقة ابن شيخ كبير... وكانت له عادات بسيطة جداً ، كان يتبعها منذ أن أرسله والده الشيخ الكبير الى بغداد ليكمل دراسته ، وقد ازدادت أو تغير بعضها بتراكم الزمن ومرور الأيام ، فكان بعد أن ينهي دروسه في المدرسة التي كان يدرس فيها ، يعود الى البيت ... يتناول غدائه ، ثم ينام القيلولة في كل أيام فصول السنة ... ثم بعد ذلك ينهض بعد ساعة لا أكثر ولا أقل ، يدخل الحمام ليستحم مهما كانت فصول السنة أو كان الموقف اليومي له ، يرتدي ملابسه ، ويبقى ساعتين لا أقل ولا أكثر يقرأ ، يقرأ كل شيء ، مجلات وصحف السياسة والادب والجنس والصحة العامة وأخبار المحافظات ، وعندما تنتهي الساعتين يخرج بعد أن كان قد حلق ذقنه بعد الاستحمام وتعطر بماء الورد الذي يستخدم لبعض الحلويات ، يذهب الى أي مكان ... أما في يوم الجمعة فيخرج من الصباح ولا يعود الى البيت إلا وقت صياح الديوك بعد منتصف الليل . كان يقضي جمعته في المقهى يتحدث في كل شيء أو يلعب الشطرنج أو الطاولي أو الدومينو حسب اللاعب المقابل له ، أما غدائه فيتناوله أما عند صديقه صاحب المقهى ، أو في بيت الشيخة .

توطدت علاقتنا به ، وتوطدت علاقته بنا بعد أن تأكد بأننا ضد فكرة وجود ابن للشيخ الكبير في أرض الغربة ، وأكد هو لنا :

- ان ذلك من المحال ، بعد أن أخبَر أطباء بغداد ولندن أخي الشيخ الكبير - وأنا الذي كنت معه - انه عقيم . كانت كل التحاليل المختبرية تشير الى ذلك . وكما أؤمن بأن الوحي قد نزل على

سيدنا محمد "ص" فإنني أؤمن بأن أخي الشيخ الكبير عقيم لا ينجب .

سأله راضي :

ـ ولكن كيف ادعى شيخ العماريين ذلك الادعاء وفرق القبيلة ؟

قال :

ـ لماذا لم تسألوه وقتها؟

قلت له :

ـ ليس المهم أن نسمع منه ، وانما جئنا لنسمع منك.

قال:

ـ ربما اجابتي لا تنفعكم ، وسترمونني بالكذب كما فعل شيخ العماريين ، وبعض أبناء القبيلة .

ضحكنا أنا وراضي وشاركنا هو الضحك ، ثم قال :

ـ أنا آسف ، انني أثق بكما ، والكلام الذي قلته للمزحة .

سأله راضي :

ـ نحن متأكدون من أن الشيخ الكبير رحمه الله كان عقيماً وان زوجته التي ادعت ما ادعت كان رحمها خالياً من أية نسمة . ولكن إخبرنا عن هذه الرسائل التي ترد من ابن الشيخ الكبير المزعوم ؟

ضحك عالياً حتى أن صوت ضحكته دفعت برؤوس الجالسين الى التحرك بأتجاهنا ، قال :

ـ أعرف انكما الاثنان لم تصدقاها ، ولكن ماذا فيها لانني لم أقرأها؟

أجبته :

ـ أنا أعرف ما فيها ... في الرسالة الأولى : أرسل النقود الى لندن . وفي الرسالة الثانية : نعي الوصي الأول وتنصيب ابنه وصياً.

تسلّم راضي الحديث مني وقال:

ـ و أنا أعرف مضمون احدى الرسائل من ابن الشيخ الكبير الى الوكيل والوصي الجديد ، يطلب فيها من أبناء القبيلة أن يسلّموا الحقوق الى الوكيل ليرسلها له .

صمتنا قليلاً كأن الذي كتب في الرسائل الثلاث قد أدهشنا ثم انطلقنا بضحكة عالية وطويلة شاركنا فيها كل الجالسين في المقهى .

***

الورقة الثالثة عشرة:

كان العم نهر أصغر من والدي رحمه الله في العمر، و أصغر من الشيخ الكبير بسنوات .

استمر العم نهر على زيارة المقهى ليلتقي بنا أياما غير يوم الجمعة . وعلى الرغم من السنوات التي عاشها إلا انه لم يتساقط من أسنانه سنا واحدا . كان ما يزال يمشي منتصب القامة ويضع دائما على شفتيه ابتسامة اللامبالاة ، وكان دائما يستطيع – كما ذكر لنا صاحب المقهى – أن يضع أنواع التوابل في كلامه مما يزيد الاشتياق عند سامعيه لحديثه.

و لم يكن ما نسب اليه من صفات أو سلوك مشين من قبل الوكيل ، أو بعض أبناء القبيلة الذين راحوا يمسحون أكتاف الوكيل ومن ضمنهم أبي وأبي راضي أي أثر كما ترك مرض الجدري الذي اجتاح أرض عشيرتنا آثاره على وجه بعض الناس من عشيرتنا.

سألناه مرة عن زوجة أخيه المرحوم الشيخ الكبير ، وفيما اذا كان يعرف أخبارها بعد هذه السنين من وقوع المحنة وتفرق ابناء القبيلة ، قال نعم ، ثم أكد : وسأخذكم اليها في أي وقت تشاؤون.

سأله راضي :

ـ هل نأتي بنسائنا عند الزيارة ؟

ضحك العم نهر، الذي خلع الزي العربي ولبس الزي الافرنجي ، من سؤال راضي وقال :

ـ ولماذا النساء ؟ هل نحن على أراضي القبيلة؟

أجبته :

ـ ربما لم تقبل أن تتحدث معنا .

ابتسم وقال :

ـ انها الآن امرأة عجوز ، والحديث معها سلس كما هو معي عن هذه الأمور التي مرت عليها سنوات .

قلت له :

ـ ولكن لماذا ادعت أنها حامل ؟

مازال شبح ابتسامته على شفتيه ، وما زالت أسارير وجهه تشي بما يدل على لا مبالاته ، وعلى انه لم يأخذ الامور التي جرت له بعد المحنة بجدية ، قال :

ـ عندما نذهب اليها اسألوها وهي حتماً ستجيبكم .

سأله راضي :

ـ وأنت... ألا تعرف؟

تحولت ابتسامته الى ضحكة عريضة ، قال :

ـ أرجو أن لا تتهموني بأنني قد اتفقت معها ، أو ما أسموه في ذلك الوقت بالمؤامرة ، وكأنني كنت قد عقدت صفقة معها ، علماً أنهم يعلمون جيداً انني لم أزر بيت أخي قبل مرضه بأكثر من ثلاثة أشهر ، وعندما زرتهم في ذلك الوقت وجدت أخي الشيخ الكبير ممدداً على فراش الموت ، وكان عزرائيل يحوم حوله

وفي اليوم التالي أخذه معه ، فمن أين لي أن أتآمر مع زوجته ، إلا أن شيخ العماريين عرف كيف يؤثر في بعض أفراد قبيلتنا الذين لا هم لهم سوى الجلوس في المضيف وشرب السكائر واحتساء القهوة المرة ، و منهم ابيك و أبي خيري.

قلت له ضاحكا:

ـ أنت تعرف أن أبي لم يكن يشرب الاثنان .

لم يجب، إلا انه ضحك ضحكة مجلجلة سمعها الذي يسير في الشارع ، وشاركناه أنا وراضي الضحكة.

كان في صوت العم نهر لا مبالاة من يعتقد أنه غير معني بكل ما جرى ، طالما أن أرضه التي ورثها عن والده ، والتي تقع ضمن أرض سلف آخر بعيدة عن الوكلاء ، أو التي ورثها عن والدته بعد موتها بالجلطة القلبية ، تدر عليه أموالاً كثيرة وفوق كل ذلك لم يتحرك أي من الوكيلين لسلبه أرضه ، أو كما قال مرة : لم يندق بي أحداً منهم.(*)

اتفقنا مع العم نهر على أن نذهب سوية الى زوجة الشيخ الكبير صباح غد . قال لنا :

ـ انها لا تبعد عن هذه المقهى سوى محطة واحدة بالباص .

عندها قررنا أن نذهب سيراً على الأقدام ، لان ذلك – كما قال لنا

ـ سيفيدنا كثيراً في معرفة المحلة التي نسكن فيها .

اخبرنا بعد ذلك العم نهر عن عدم وجود خلف لأخيه الشيخ الكبير لا في العراق ولا في أي مكان آخر من العالم ، وتساءل : أين الشاهد ؟ ثم أكد : كل أبناء القبيلة يعرفون ذلك ، وأغلب

شيوخ الجنوب يعرفون بعقمه ، لهذا كانوا يكنونه بـ (أبي غائب)(*) ، فمن أين جاءه هذا الابن الذي يدرس في لندن ... ها ؟

كان كلامه صحيحاً ، فلم نجبه بكلمة .

عرفنا بعد ذلك أن وفاة أمه قد وقعت بعد أشهر قليلة من وفاة الشيخ الكبير ، بعد أن أقنعها شيخ العماريين بفكرته ، خاصة أنها كانت تريد أن تحافظ على أملاكها وعلى حق المشيخة إلا أنها لم تعرف جيداً نوايا شيخ العماريين وطمعه.

قال:

- كان (في الوجه مرايه وفي الظهر سلايا) (*)

وتابع قوله:

- كنت أنا أحذرها منه ، إلا أنها لم تسمع مني ، لأنها كانت متعلقة الى حد ما بإبنها الشيخ الكبير. و في يوم من الأيام سمعت والدتي أنه قد إشترى عمارة له في بغداد . قاطعه راضي متسائلاً :

- قيل بيت وليس عمارة ؟

أجاب :

- كلا ، انها عمارة من ثلاث طوابق .

وتابع قوله :

- المهم أنها أرسلت بطلبه . وكنت أنا خارج العراق . وعندما سألته عن العمارة ومن أين جاء بالثمن ، أجابها بكل صلافة السارق الذي يريد أن يقول ها أنا أسرقكم :

ـ انه حقي ، وأنا المؤتمن على أموال الشيخ الكبير وأنت لا علاقة لك بذلك ، فقد أخذت ارثك منه ، ولا يحق لك أن تتدخلي بمال الآخرين .

ثم تابع قوله بعد أن انقطع ليرد على تحية أحد معارفه :

ـ عندها استشاطت غضباً منه وطردته . وكانت خادمتها تتسمع لكل شيء . وبعد لحظات أصيبت بالجلطة القلبية ، وماتت عندها هربت الخادمة الى بيت شيخ العماريين ، فاستضافها عنده ولم أعرف أنا بهذه الحادثة إلا بعد أن مات الوكيل – شيخ العماريين – والتقيت صدفة بالخادمة بعد أن طردها ابن شيخ العماريين الوكيل الحالي ، عندها لم يكن في اليد حيلة إلا الصبر والقبول بما قدره الله سبحانه ، وانا لله وانا اليه راجعون .

لم يكن العم نهر حزينا على أخيه الشيخ الكبير، بعد أن أخرجه من العرس بلا حمص ، أو على والدته بعد أن شاركت شيخ العماريين والآخرين بوصمه بشتى التهم ، وقد اشتركت مع شيخ العماريين بوضع فكرة ابن الشيخ الكبير الغائب الذي يدرس في بلاد الغربة ، لأن الناس يعرفون أن الشيخ الكبير لم ينصب شيخاً من بعده ، وبعد أن أقنعها انه سيدفع لها ربع ما يجنيه من حصة المشيخة من غلة أراضي الفلاحين ، وأقنعها أن يكون وكيلاً لها على الأراضي التي أورثها لها ابنها ، وعندما عدت – يقول العم نهر – من لبنان لم أستطع أن أعمل شيئاً ، لقد وصلتني الأخبار على أنها ماتت موتاً طبيعياً وصدقت ، وهذا صحيح لأنها كانت كبيرة العمر ، وكما قلت لم أعرف بالمشادة التي حدثت بينها وبين الوكيل التي أدت الى أصابتها بالجلطة إلا بعد موت الوكيل ولقائي صدفة بخادمتها ، إذ لم أكن أعلم أن الخادمة تعيش في بيت الوكيل ، فضلا عن انني لم أجد وجها يرتاح لي من الذين بقوا على أرض العشيرة وكلهم قد

اشتراهم الوكيل بأموال حق المشيخة وابن الشيخ الكبير المزعوم وما كان يغذيه هو وابنه الوكيل الجديد من افتراءات ضدي وأنتم تعرفون أن القبيلة انقسمت الى فرق عديدة وانتشرت بين غرب العراق و شرقه.

لم تكن في كلام العم نهر أية نبرة حزن لا على أمه ، ولا على أخيه الشيخ الكبير ، ولا على ما آل له حاله وهو ابن الشيخ الكبير وأخي الشيخ الكبير، ذلك. كما كنا نعلم – أن والده وهو والد الشيخ الكبير قد أرسله صبياً الى بغداد ليكمل دراسته . وقد أكملها ، وأصبح مدرساً في ثانويات بغداد . وتزوج من احدى بنات بغداد – من قبيلتنا نفسها – وظل بين الفينة والأخرى يزور والده الشيخ الكبير في دارهم الكبيرة ، وعندما مات أبيه ظل يزور أخيه الشيخ الكبير بين الفينة والأخرى ، ولم يكن يتدخل في القضايا القبلية أو العشائرية لا في زمن والده ولا في زمن أخيه .

سألته و نحن في مجلسنا في المقهى :

- لماذا لم يوص لك أخوك بالمشيخة ؟

قال لنا مستغرباً :

- أصحيح انكم لا تعرفان ذلك ؟!!

أجبناه بصوت واحد وكنا نعلم بالامر ، ألا اننا نريد أن نسمعه منه وما هو رد فعله عن ذلك :

- كلا.

قال متعجباً :

ـ أنتم أبناء القبيلة ، وأبناء أكبر عشيرة فيها ، ووالديكما من أصحاب الشيخ الكبير ، ثم أصبحا مساعدين للوكلاء ولا تعرفون عادات وتقاليد تسليم واستلام المشيخة ؟

قلت له :

ـ شيخ نهر ....وقبل أن أكمل كلامي ضحك وقال :

ـ من قال انني شيخاً ؟ ها ؟... أم أنك وصاحبك تريدان أن تجعلوا مني شيخاً رغماً عن أنفي ؟

رد عليه راضي :

ـ أنت ابن شيوخ متسلسلين ، إذن أنت شيخ .

قال العم نهر والضحكة ما زالت صداها في أذني:

ـ اتركوا هذه المسأله وسأجيبكم على تساؤلكم على الرغم من انني أعرف انكما تعرفان ذلك .

قال راضي :

ـ نعم نعرف ، إلا أننا نريد أن نعرف منك أنت وما هو رد فعلك تجاه ذلك ؟

قال العم نهر بعد أن اعتدل في جلسته على تخت المقهى ، وبعد أن طلب من عامل المقهى أن يأتينا بثلاثة استكانات شاي حار:

ـ لا رد فعل لي، لأنه من (سناين)(*) القبيلة هو أن تكون المشيخة للابن الأكبر للشيخ ولا تذهب الى أخيه .

قلت له :

ـ وان لم يخلف الشيخ الكبير ابنا له ؟

قال :

ـ أما أن يحدد الشيخ الكبير قبل وفاته شيخا من بين شيوخ عشائرها ، أو أن يختار أبناء القبيلة ذلك الشيخ ، وأيضاً يجب أن يكون من شيوخ عشائرها .

قال راضي :

ـ ولكن للشيخ الكبير قبل أن يموت أن يوصي لأخيه ولا يترك أبناء القبيلة هملاً ، فلماذا لم يختارك؟

قال العم نهر :

ـ نعم ، بشرط أن يكون هذا الأخ ممن عاش على أرض القبيلة طيلة عمره ، وانتم تعلمون انني لم أعش على أرض القبيلة سوى خمسة عشر سنة ، ثم أرسلني والدي الى بغداد لادرس فيها وبقيت فيها وتزوجت وأ نجبت وأصبح لي أحفاداً .

قلت :

ـ اذن لماذا لم تعد بعد اكمال دراستك ؟

ابتسم ، ثم شرب استكان الشاي الذي برد ، قال :

ـ لأنني كنت يائساً من أن أكون شيخاً ، وقتها قلت ان أخي سيخلف أبناء سيخلفوه على المشيخة .

قلت :

ـ ولكنك علمت انه كان عاقراً ؟

قال :

ـ نعم ،بعد أن استمرأت العيش في بغداد ، وتزوجت من بغدادية عندها نسيت المشيخة.

***

الورقة الرابعة عشرة:

هذا اليوم وصَلنا خبر وفاة الوكيل الثاني ... وجدوه ميتاً في فراشه ... لم تكن زوجته تعرف ماذا تفعل ... هكذا وصلتنا الأخبار وانتشرت كما النار في الهشيم ... وتهامست الشفاه بالآذان ، فحَكَت الكثير ... منها أن زوجته دست له السم في الأكل ، ومنها أنها وضعت وسادة على أنفه وخنقته لأنها عرفت بخطبته لأحدى بنات أبناء سلفه على أرض العشيرة فقررت بمساعدة بناتها اللائي مر قطار الزواج عليهن دون أن يقف ليركبن فيه ، وقيل ... وقيل ، إلا أن الأكيد في القول إنها ركبت سيارته مع سائقه دون أن تخبره بوفاة الوكيل وطلبت منه أن يوصّلها الى مضيف العماريين ، وهناك أرسلت بطلب أبي راضي مساعد الوكيل .

تقول الأخبار التي إنتشرت كإنتشار بذور اللقاح في الجو وكانت محملة بكل كلمات الخبث ، انها إجتمعت لوحدها مع مساعد الوكيل في المضيف ، وبعد ساعة من إنفرادهما ، خرج أبو راضي وبيده ورقة مكتوب فيها أن ابن الشيخ الكبير فرج اللّه غربته أوصى أبناء قبيلته بأن وكيله على حقوق المشيخة هو أبو راضي.

كانت الورقة تحمل السيف المسلط نفسه على رقاب أبناء قبيلتنا أو ما تبقى منهم ، فبدأ الناس يهنؤنه . و لهذا عندما إستقبلتنا زوجة الشيخ الكبير- التي إدعت بعد وفاته أنها حامل من الشيخ الكبير ، فأرسلت أم الشيخ الكبير من يدعو القاضي ليأتي بالنساء العارفات بقضايا النساء ، فحجزنها في بيت القاضي وتبين أنها غير حامل ، فطردت وطوردت من الدار الكبيرة - قدمت

التهنئة لراضي ضاحكة عن أسنان فقدت نصفها والنصف الآخر إصطبغ بلون أصفر مسود ... قالت:

- ان والدك خير خلف لخير سلف .

ذهل راضي ، ليس للتهنئة التي لا يرغب بها ، وإنما لسرعة وصول الأخبار ، و أجابها ضاحكاً :

- دعي الناس يعيشون.

ها هي أمامنا عجوزاً كبيرة السّن . نخلة من نخيل بساتيننا التي أكلها العطش فظلت بدون عثوق مدلاة ، وقد امتلأ جسمها بأنواع الأمراض بعد أن عاشت في منزل والدها لسنوات قصيرة ثم تذكره اللّه وأخذه الى المكان البعيد . امرأة مهدمة بعد أن كانت كما تصفها والدتي جميلة الجميلات ، مهدمة جسدياً ومهدمة نفسياً ، لقد أثرت أيام المحنة فيها كثيراً . وقد هدر عدم الإنجاب سنين حياتها التي تبقت بعد موت الشيخ الكبير كهدرها لسنين شبابها معه . وراحت تلك السنين تطبخها على نار هادئة . وها هي تأكل من المرق(*) المر لذكرى تلك الأيام الخوالي . لقد جهَزت كفنها ساعة إخبارها لأم الشيخ الكبير أنها حامل . كان ثقل الشيخوخة ثقيلاً عليها.

أبدلت ملابسها المورّدة بكل ورود الحدائق والتي كانت تخاط لها وحدها في بغداد بالملابس السود كسواد عينيها الذي قطرته الأيام على ملابسها . لقد ولت عنها أيام السعادة في كنف الشيخ الكبير، وحتما أنها لن تعود . كانت ترتدي ثوباً طويلاً فضفاضاً أسود اللون ، فيما كان شعر رأسها تغطية الشيلة والعصابة (*)السوداوتين .

كل شيء فيها قد تبدل بعد موت الشيخ الكبير إلا خاتم زواجها الذي ما زال في أحد أصابع يدها اليسرى ، كان حتماً ذكرى تلك الأيام ، لقد سقطت في رمال أيامها ؟

جلسنا – أنا وراضي والعم نهر – على بساط رخيص الثمن بعد أن باعت كل ما تملك لتدور على الأطباء علّ أحدهم يعرف ما أصابها من أمراض عديدة . وكان العم نهر يساعدها بالنقود عندما فقدتها كلها . إذ كان سيل أيام المحنة الجارف لكل شيء قد جرف كل شيء عندها ، قالت وبحسرة:

ـ أيه ... دنيا قديمة !

رد عليها راضي ضاحكاً ومواسياً :

ـ انها جديدة يا شيخة .

ابتسمت بصعوبة من خلال غلالة أسى من لم يجد البسمة على أساريره ، وقالت:

ـ الشيخة ...الشيخة ... وماذا تبقى من الشيخة ؟ ها ؟ رحم الله الذين ماتوا ، وغفر الله لمن سبب في كل الذي جرى لقبيلتنا .

خرجت من الغرفة ، وبعد دقائق عادت – بعد أن فقدت الى الأبد مشيتها المعروفة عنها بين نساء قبيلتنا ـ بالقدر الذي استطاعت به أن تحمل ثقل السنين التي لم تستطع هزيمتها وهي تنوء بثقل مجموعة أمراضها المعروفة و غير المعروفة ، حاملة صينية أكل الصدأ بعض بريقها ، عليها ثلاثة إستكانات شاي ، وضعتها أمامنا وجلست منهدة وكأنها تركت جسدها ينزل بقوة على البساط .

لقد أنهكتها شيخوخة المشيخة المطرودة منها ، وبحسرة قالت :

ـ أيـــــــــه ... أيـن كنـا ، وأيـن أصـبحنا ... الم أقـل انهـا دنيـا قديمة ؟

كانت عيوننا أنا وراضي لا تنزل عن وجهـا الـذي أتـذكـر انـني رأيته أكثر من مرة ، كان فلقة من القمر ، بل هو القمر ، قلت لها محاولا طمأنتها :

ـ ما زلت جميلة وبصحة جيدة .

اقتربت مني كثيرا حتى لم يبق بين وجهي ووجهـا سـوى مسـافة قصيرة وضحكت ، ولأول مـرة أراهـا عـن قـرب ، انهـا نهـر جـفـأ و يبست شواطئه ... قالت :

ـ هل تريد أن تتزوجني ، أم انك تريد أن تقنعني بقولك هذا ؟ أم انـك تريد أن تأكل برأسي حلاوة ...ها ؟ ثم التفتت الى العـم نهـر الـذي راح يخفـي ضحكته ، وقالت له غاضبة:

ـ من قال لابن مساعد الوكيل القـديم انـه سيشـتريني بكلامـه هذا ... ها ؟ ثم حولت كلامها الغاضب الى راضي، وقالت له :

ـ إسمعنا يا راضي صوتك ... قل ما شئت عن مشيختي وجمالي ؟ ثم أدارت وجهها لي مرة اخرى وقالت بعد أن ابتعدت عني قليلاً :

ـ انس كل ما قلته لك .

وصمتت .

كان الصـمت في الغرفـة قـد أصـبح شـفـافاً تسـمع مـن خلالـه أصوات تنفسـنا ونحـن ننتظرهـا لتمزقـه بكلماتهـا ، فيمـا هـي راحت تنظر في نقطة حددتها على جدار الغرفة الذي قشطت بعض طلائه أيام المحنة وزال عنه بريق سنوات شبابها . قالت متسائلة:

ـها ... لماذا جئتما ؟

وقبل أن نقول أية كلمة تابعت قولها :

ـ اسألوا ما يحلوا لكم ...لا تخافوا من الشيخة ... اليس كذلك يا راضي... ولا تنبهروا بجمال وجهي الذي سينسيكم ما جئتم به ...اليس كذلك يا خيري ؟ وانت يا نهر يا من كنت صادقاً معي أرحب بكم دائماً في بيتي المتواضع فلا تترددوا عن طلب ما تريدون .

ثم صمتت ثانية . وساد الصمت في أرجاء الغرفة . أما أنا فإن ما ركب نفسي وربما نفس راضي من خوف من أن تطردنا من بيتها كان عظيما . فيما كان العم نهر دائم التبسم وهو ينقل عينيه بيننا أنا وراضي وبين زوجة الشيخ الكبير العجوز ... كان حتماً يريد أن يعرف رد فعلنا تجاه كلام الشيخة المطرودة من المشيخة.

الصمت هو الوحيد الذي كان يسكن الغرفة التي كانت تضمنا نحن الأربعة ... والصمت هو الوحيد الذي تخلف عن كلام الشيخة ... والصمت هو الوحيد كذلك الذي ثلمه كلام الشيخة عندما قالت :

ـ اسمع يا خيري وأنت يا راضي ، أعرف كل ما جئتما من أجله ... وأعرف إنكما لم تصدقوا قول شيخ سلف العماريين ولا أبي خيري ولا أبي راضي عن الابن الغائب للشيخ الكبير في لندن ... وأعرف لماذا انتقلتم الى بغداد ... وأعرف لماذا تشاجر راضي مع والده وأعرف فوق كل هذا وذاك أن حبيباتكما قد رحلتا عنكما وقد تزوج أحدكما شقيقة الآخر ... كل ذلك أعرفه ، فاتركوا قضية جمالي وقضية مشيختي إلى الأبد .

هالني ما سمعت ، و في الوقت نفسه فقد اندهش راضي مما سمع وراح كلينا ينظر بوجه الآخر، فيما الشيخة أخذت صينية استكانات الشاي الفارغة وخرجت.

كسر صمتنا قول العم نهر وهو يضحك شامتا بنا :

ـ ها ... ماذا تقولان بعد الذي سمعتماه ؟

لم نقل شيئا ، بل انني شعرت وكأن لساني أصبح خشبة يابسة راحت تشقق لهاتي ، فإنتبه العم نهر إلى ذلك وأعطاني قدحا من الماء وهو يبتسم ، ثم أعطى راضي قدحا آخر وما زالت ابتسامة الشماتة بنا كما هي مرتسمة على شفتيه .

قلت له بعد أن إسترد لساني طراوته :

ـ اشمت بنا يا عم نهر ... ولك الحق في ذلك لأننا أصبحنا أغبياء بعدم سؤالنا إياك عن عادات الشيخة .

قاطعني بصوت خفيض كي لا تسمعه الشيخة :

ـ أتقول عنها شيخة وهي التي منعتكم عن قول ذلك ؟ اسكت لا تسمعك .

وراح يضحك بملئ فيه.

عادت الى الغرفة بعد لحظات ، كانت حركتها أثناء المشي بطيئة جدا حتى اني خفت من أن تقع على الأرض من ثقل الصينية . جلست أمامنا بالضبط . وقالت موجهة سؤالها لي :

ـ ها خيري ... ماذا تريد أن تعرف بالضبط؟

ارتبكت قليلا ، تساءلت مع نفسي : ماذا أقول لها ... لقد تبخر كل سؤال من ذاكرتي بعد كل الذي سمعته منها ، ورحت أدير

نظري بين راضي والعم نهر أستنجد بهما ، إلا أن راضي أدرك الموقف اخيرا وسألها :

- لا نعرف بماذا نخاطبك ، أنقول شيخة أم ماذا ؟

ضحكت ، و بانت أسنانها المتساقطة من مقدمة فمها ، قالت :

- نادوني يا عمة كما كنتم تنادونني في القرية.

قلت لها :

- هذا أفضل لنا ولك ، فما زلت أنت عمتنا حقاً .

ضحكت طويلاً... كانت أمامي امرأة قلبها طري كشنقة(*) العجين ، وبريئة حد الإنكسار، على الرغم من أطنان المآسي التي تجرعتها.

قالت مبتسمة:

- ما زلت تريد أن تشتريني بلسانك الذي لا تعرف كيف تسيطر عليه .

لذت بالصمت وأنا محتار في كيفية التعامل معها . كما ظل راضي صامتاً . فيما العم نهر ما زالت ابتسامة الشماتة مرتسمة على شفتيه وهو يدير رأسه بيننا ، أنا وراضي ، وبينها ، وكان يراقب شفاهنا عند الكلام .

قالت :

- اتركوا كل شيء ... المشيخة والجمال ومرضي .

تجرأ راضي بعد أن عرف انني ضقت صبرا بهذه الشيخة العجوز . قال :

- ياعمة ... إخبرينا عن إدعائك بالحبل عند وفاة الشيخ الكبير، وماذا فعلت النساء البغداديات؟

راح راضي ينقل عينيه بيني وبينها كأنه يريد أن يقول ها... أترى مساعدتي لك ، بينما استأذن العم نهر للذهاب الى المرحاض لأن مثانته قد امتلأت ، ولا يصبر على ذلك بعد أن إبتلي بورم فيها.

تنهدت الشيخة المطرودة بقوة ... ثم سكتت لحظة وكأن سؤال راضي استنهض في نفسها ما كان نائماً ، أو انه أزاح عن ذاكرتها غطاءً ثقيلاً فأنكشفت أسرارها التي لا تريد أن يعرف عنا أحد .

كانت ذاكرتها قد مسحت عن صفحتها كل ما هو سعيد مفرح ، وحافظت على ما هو محزن ، مؤلم... ثم وبصوت منكسر بعد أن أعادت تركيب ذاكرتها المهشمة كالزجاج ، راحت تروي لنا ماحدث وقتها بالضبط وكأنها تراه الآن.

***

الورقة الخامسة عشرة:

لم يكن موت الوكيل قد شَغَلنا عن الحديث مع زوجة الشيخ الكبير ... إذ لم يَدُم ذكره بيننا سوى ثوانٍ معدودة ... إلا ان ما شغلنا بعد خروجنا من بيت زوجة الشيخ الكبير هو قبول أبو راضي بهذه الكذبة التي نعرف بدايتها ولا نعرف نهايتها ... إلا أننا قررنا ، أنا وراضي، أن لا يؤثر قبول أبو راضي بالوكالة على ما نقوم به للوصول الى الحقيقة، على الرغم من أننا وأغلب أبناء قبيلتنا الذين إرتحلوا أثناء المحنة أو بعض الذين بقوا على أرض القبيلة كنا نعرف أن كل ما حدث هو كذبة من صنع شيخ سلف العماريين ومن وقف معه ، ولا نستثني والدي وأبو راضي من ذلك.

عند عودتنا أنا وراضي من بيت الشيخة أو العمة ، رحنا أنا وهو نستذكر كل ما قالته ، بعد أن أخرجت سجلي من الديلاب الخشبي لأول مرة أمام راضي ، أندهَش مما قرأه في بعض صفحاته ألا انه لم يلمني على عدم إطلاعه عليه في السابق ، قال لي:

- افتح صفحة جديدة وضع لها عنوان : إعترافات الشيخة.

لأول مرة أسمح لشخص آخر أن يشاركني سجلي . فلم يكن راضي كاتم سري مع خيرية فقط ، بل أصبح شريكي العلني والسري في البحث عن أوراق المجهول.

امتثلت لكلامه ، فتحت صفحة جديدة في السجل وعنونتها كما أراد . ورحت أسجل فيها كل كلام سمعناه من فم الشيخة التي حفرت المحنة في نفسها وجسدها آثاراً يصعب محوها . كان كلامها لم يزل في ذاكرتنا أنا وراضي طرياً وكاملاً دون زيادة أو نقصان .

عندما سألها راضي عن سبب إدعاءها بالحبل، تنهدت وتحسرت طويلاً وغابت قليلاً عنا وهي في مكانها وكأنها تستذكر تلك الأيام الخوالي بكل مرها وحلوها . ثم راحت تنظر الينا بكل ما أنعم الله عليها من حواس ... ربما كانت تريد أن تستجمع ذاكرتها . حتماً أن مرآة حياتها قد أغبشتها المحنة . عضت على شفتها السفلى التي كانت بلون الديرم(*) بما تبقى في مقدمة فمها من أسنان وكأنها تريد أن تمنع أي ذكرى من الافلات منها . كانت أمامنا وكأنها ليست زوجة الشيخ الكبير لقبيلتنا . فكل شيء فيها قد ذوى ... وبعد لحظات مرت علينا كالدهر ، قالت بذات الصوت المعدني الذي أتذكره مع قطع الحلوى التي توزعها علينا نحن اطفال قريتها:

ـ تزوجني الشيخ الكبير رحمه الله وأنا إحديثة لم تكمل الرابعة عشرة من عمرها ، قبل أن تولدا، وكان هو في سن الثلاثين وقد تزوج قبلي بثلاث نساء ... كان والدي يعمل سائقاً عنده وكنا نسكن في بغداد ، وكثيراً ما كان الشيخ الكبير يزورنا في بيتنا مع والدي . ومرة رآني فخطبني من والدي وتزوجني في الليلة نفسها بعد أن ذهب والدي إلى أحد رجال الدين وجاء به الى بيتنا وعقدني عليه وأنا لا أعرف ما الزواج ومن الزوج سوى انه الشيخ الكبير لقبيلتنا . وفض بكارتي على سرير والدي ووالدتي في الليلة نفسها . وفي الصباح غادرت بيتنا معه إلى الدار الكبيرة على أراضي القبيلة متوجة بأدعية والدتي وبكاء أخواتي الأصغر مني.

وبعد صمت لم يطل وكأنها تحث ذاكرتها على ترتيب أقوالها ثم تقديم الصور المخزونة فيها لعرضها أمامنا ، تابعت القول :

ـ دخلت الدار الكبيرة كما أمرتني عمتي أم الشيخ الكبير بقدمي اليمنى .

كنت أحمل صرة ملابسي التي اشتراها لي الشيخ صباح ذلك اليوم وصورة شمسية لي وله التقطها مصور شمسي يقف على رصيف الكراج وقد مزقتها عمتي أم الشيخ الكبير بعد طردي من البيت.

قاطعها العم نهر وأخبرنا انه ما زال يحتفظ بصورة أخرى لهما من النوع الكهربائي.

ـ ومن ذلك الحين أنا خادمة في البيت – تابعت حديثها ـ إلا انني خادمة بمستوى عال . وكان الأمر والنهي من إختصاص أم الشيخ الكبير ، لم أغضب ، ولم أنفر من تلك المعيشة ، لسبب واحد لأنني وجدت الحب عند الشيخ الكبير في غرفتنا المستقلة . كان الشيخ الكبير عندما ينهي كل حديث مع أمه يدخل غرفتنا ويقفل بابها من الداخل. عندها تبدأ سعادتي ، في الكلام المعسول وفي تقديم الهدايا ، وكذلك على السرير. كانت شفتاها قد إفترت عن إبتسامة صغيرة لتذكرها تلك الأيام الخوالي. وبعد سنين من السعادة في غرفتنا نسيت الإنجاب والأطفال والسراب الذي ملأ بصري بهما ، وكان عزائي في ذلك أطفال العشيرة الذين يزورونني بموافقة الشيخ الكبير وأمه وكنت أقدم لهم الحلوى التي يشتريها الشيخ الكبير من بغداد بكميات كبيرة لهذا الغرض. فكرست حياتي لخدمة زوجي الشيخ الكبير بمساعدة وحماية تميمة التي كثيرا ما اسمعها من أبي و أمي ، في أن الإنجاب من أمور الغيب وهو منحة الهية .

سألتها :

ـ وعن ادعاءك بالحبل ؟

ردت قائلة وكأنها أمام محقق يريد أن يلم خيوط الجريمة :

- إنتم تعرفون أن الشيخ الكبير تزوج أكثر من امرأة ولم ينجب من أي واحدة منهن، وهذا يعني أن العيب فيه وليس في النساء، وأنا لم أعرف بهذا إلا بعد سن العشرين على الرغم من أن والدي ووالدتي يعرفان كل شيء . إلا انني أحببت الشيخ الكبير كثيراً بالمقدار الذي تحب فيه فتاة في الرابعة عشر من عمرها رجلاً بعمر أبيها وخدمته لأنه كان يحبني ولم يقصر معي بشيء. فبلعت مرارة أن تبقى المرأة المتزوجة بدون أطفال . وقلت مع نفسي ما كان والديّ يقولانه لي : هذا رزق من اللّه ولا دخل للشيخ الكبير به . وقتها لم أفكر بغير هذا القول حتى مرض . وكنت أنا الوحيدة التي أدخل معه الحمام لأحممه . كان بين يدي بديلاً عن الابن الذي لم أنجبه منه أو من غيره . كان مريضاً ، لم يقو على الوقوف لوحده لفترة قصيرة . وبعد أن يخرج وقد أزلت عنه أية شعرة في لحيته أو تحت ابطيه أو على عانته . أساعده في ارتداء ملابسه بعد أن أرش جسده كله بماء الورد ، ومن ثم أدلكه بـ "البوطرة" التي يستعملها طيلة حياته الى أن رقد على فراش الموت . عندها إنتبهت الى نفسي ، قلت لها: ما ذنبي أنا التي أفنيت شبابي مع رجل لا ينجب ؟ لماذا رماني والدي مثل هذه الرمية الخائبة؟ وظلت هذه الفكرة تدور في رأسي حتى اذا مات وقد أخرجني بوصيته بلا حمص أو حتى عدس . إدعيت بما إدعيته لكي أحافظ على بعض مال زوجي. إلا انني لم أكن أعرف بما فعلته أم الشيخ الكبير عندما أرسلت على النساء العارفات . وإلا ... أستغفر اللّه من كل ذنب عظيم.

ثم سكتت ، وسالت دمعة واحدة على خدها ، فيما الآخرى تلجلجت في مآقيها رافضة النزول ، ربما شعرت بإهانته الموجعة لها والتي ما زالت تثقل عليها حياتها.

تنهدت وتحسرت كثيراً ... حتما قد إنفتحت عندها جراحات النفس القديمة التي كانت قد التأمت. أو انها إقتنعت بإلتآمها وراحت تنزف ألما ، فتركت رأسها ينزل على صدرها ، وهي تحرك عود ثقاب على نسيج البساط وكأنها ندمت عن قول ما قالته.

بعد لحظات عادت الينا من رحلتها مع عود الثقاب ، قالت :

ـ هذه الأمور لم أذكرها... إنها المرة الأولى التي أخبر بها أحداً ، فلا تكونوا ممن ينبش في عرضي كما فعل شيخ العماريين وابنه.

قلنا لها بصوت واحد :

ـ اطمأني.

شردت عنا محتمية بذكرياتها ... ربما تمثل في ذاكرتها شريط حياتها كاملاً، عندها ولكي اخرجها من هذا الشرود قلت لها :

ـ لا أحد يمسك بسوء .

وراحت تكمل ما بدأته ، إلا أن الذي قالته كان سراً لا يعرفه غيرها و العم نهر. وهذا ما أدهشنا أنا وراضي، حتى أن راضي قام وقبلها على رأسها ، قالت ، بعد أن مسحت عن عينيها دمعة أخرى حاولت النزول بعد تلجلجها في مآقيها ، و بعد أن تنفست من أعماقها، بصوت منكسر ، صوت منخفض بالكاد يصل ألينا وكأنها تخاطب نفسها :

ـ فكرت في تلك اللحظة أن أنام مع أحد الأغراب لكي أحبل ... أستغفر اللّه وأتوب إليه ... ان الذي آلمني ليس موت الشيخ الكبير وإنما هو الوصية ... وبعد هذا العمر الطويل معه وبخدمته وقد أفنيت شبابي معه ، يوصي بتركته لوالدته فقط؟!

قلت لها :

ـ هـذا مخـالف لأمـر الشـريعة ، ان الشـريعة تنفـذ الوصـية بثلـث التركة.

راحت نظراتها الكليلة تـتفحص وجهـي المـرتعش الـذي أصـبح لونه كالليمونة ، إنسحب الدم منه، شعرت بها تأكلني بنظراتهـا وكأن كلامي استفزها ، فإبعدت نظراتي عن نظراتهـا كـي لا تحرقني بهما بعد أن إستعرت فيهما الذكريات، قالت:

ـ لم أكن أعلم أن أم الشيخ الكبير ستتحايل حتـى تطردنـي مـن الدار الكبيرة . كان والدي وقتها قد تـرك سـيارة الشـيخ لكـبر سنه، ولم يكن لنـا أنـا وأخـواتي أي أخ يعـين والـدي في المعيشـة ففكـرت بما فكـرت فيـه ... إلـا أن اللّه كـان يحـبني ، فـألهم أم الشيخ أن ترسل بطلب القاضي والنسـاء العارفـات ، ورحـت معهـن وأنا أعرف انني لست بحامل لكنني لم أستطع إخبارهن وقتها وقلت مع نفسي :انهن سوف يعرفن بعد حين .

ولاذت بالصمت مرة اخرى، كانت أمامنا تتألم ، وكأننـا فتحنـا لها جراحاً ملتئمة بفعل تقادم الأيام راحت تنزف دماً، وعاد الصمت مرة أخرى الى جو الغرفة إلا انها كسرته بقولها بعد أن شربت ذلـك الألم النازف:

ـ سآتي لكم بالشاي.

تركناها تخرج من الغرفة لا لحاجتنـا للشـاي، ولكـن ـ كمـا خمنت ـ لحاجتها هي للإختلاء بنفسها بعض الوقت بعد أن قالت :

ـ ان اللّه لطف بي وحفظني .

قلت مع نفسي : كم هو ثقيل عليها الزمن الذي مضى.

هذا ما كتبته في السجل، وعندما قرأه راضي وافقني عليه وأخبرني أنه كان من رأيه وقتها أن نتركها مع نفسها . وأخبرني أنه فكر في أن يطلب مني ومن العم نهر أن نغادر بيتها بعد الذي سمعنا الذي سمعناه، وان نأتيها في وقت آخر قد لملمت فيه جماع نفسها وأستراحت قليلاً من نار ذكرياتها .

قال لي راضي وأنا أهيء أسئلة يوم بعد غد :

ـ لها الحق في ما أرادت أن تعمل بنفسها ... لقد أخرجوها من المولد بلا حمص ... ثم سألني:

ـ لماذا أبعدها الشيخ الكبير من وصيته ؟

قلت له :

ـ لم أكن أعرف ... وعندما سألت والدي وقتها هذا السؤال أجابني بقوله:

ـان اللّه وحده هو العالم .

وفي يوم ما ، أصبح موغلاً في القدم . كنت في غرفتي الخاصة أقرأ ، دخل علي والدي فجأة وقال لي :

ـ خيري ... أتتذكر سؤالك لي عن سبب أبعاد زوجة الشيخ الكبير عن الوصية؟

عندها فرحت وتهللت أسارير وجهي وقلت مع نفسي أن والدي هو الوحيد العارف بذلك ، قلت له :

ـ نعم أتذكره ، ما هو السبب ؟

قال:

ـ ربما كان يعرف أن والدته لن تترك زوجته تعيش بعيداً عنها لأنه يعرف أن زوجته امرأة خدومة وأراد أن تكون العلاقة بينهن قوية .

كانت الـ (ربما) في بداية كلامه قد إبعدت عنه أي موثوقية إلا انني كنت مع رأي والدي – كما قلت وقتها – إلا أن الأمور لم تسر كما أراد الشيخ الكبير، اذا كان هذا صحيحاً. فعندما أعلن شيخ سلف العماريين أنه الوصي على ابن الشيخ الكبير الذي يدرس في بلاد الغربة ، كانت الشيخة وردة في بيت القاضي تنتظر نتيجة فحص النساء العارفات . وعندما انتهت فترة مكوثها هناك وعادت إلى الدار الكبيرة وحضنها فارغاً ، طردتها أم زوجها ، وادعت مع شيخ سلف العماريين بأنها لم تكن زوجة للشيخ الكبير، وانما هي خادمة عنده ، ولم تفد ورقة العقد، ولا شهادة رجل الدين الذي وجدوه في اليوم الثاني ميتاً خنقاً على فراشة ، والذي شهد أمام جمع غفير بأنه هو الذي عقدها على الشيخ الكبير . عندها سكتت السِنة الحق كما يقال فعاشت في بيت والدها .

***

الورقة السادسة عشرة:

يولد النهار في كل يوم، ويبقى الليل السرمدي يحبل بالآلام والمعاناة والأخبار السارة وغير السارة... وتمر الأيام مسرعة راكضة الى المجهول، دون أن نلحق بها ، إلا أن الذكريات لن تموت.

مرت أشهر السنين بأيامها كما تمر على خلق اللّه ، رغماً على انوفنا وانوف الذين خلـّفونا حسب تعبير والدي رحمه اللّه.

مات الشيخ الكبير وخلف ورائه ذهولاً لا يوصف ، وماتت معه أسرار وأسرار، تجربة صعبة طالت أبناء قبيلتنا ،إذ ظلوا دون شيخ يقودهم أمام شيوخ هذا الزمان ، ولم يخرجوا منها حتى هذه الساعة التي أدون فيها في سجلي ما جرى لقبيلتنا، وما أعرفه وما لا أعرفه وما عانيته وما لم أعانيه أنا ، ومات وكيل الشيخ الكبير، شيخ العماريين، و قد أسس وخلّف محنة كبيرة ما زالت تجربتها سيفاً مسلطاً على رؤوسنا ، صغيراً وكبيراً ، رجلاً وامرأة ، انساناً وحيواناً ، وعلى الأرض بخضرتها أو بسبخها ، وعلى النهر بمائه الذي كان سلسبيلاً والذي بات مرا أجاجا ضحلاً يسهل عبوره للطفل بعد أن كان يأخذ في كل عام ضحية أو أكثر من أبناء قبيلتنا . ومات والدي كمداً بعد قراءته الورقة المحلية الصنع في المكان الذي قبض اللّه فيه الشيخ الكبير. وماتت معه أسرار كنت على وشك معرفتها . وما زالت تجربة المحنة سيفاً مسلطاً على رقاب أبناء وأحفاد قبيلتنا . ثم مات الوكيل الثاني دون أن يخلف ابنا ذكرا - وربما كان يبحث عنه عند رضية أو عند إحدى بنات سلفه - يحفظ له اسمه ويكون له خلفاً في الوكالة إلا أن خلفه أبي راضي جاءت به زوجته وكيلاً على أموال مشيخة قبيلتنا التي ظلت بدون شيخ يقودها في هذه المحنة على

الرغم من تفرقها في جهات الأرض الأربعة التي كان يحكمها جلجامش وسرجون و... و ...، وهذا الزمن الصعب ، وانسلاخ الليل من النهار والنهار من الليل ، دون أن يكلا أو يتعبا كما أبناء قبيلتنا الذين لم يركنوا إلى طريق سوي بينهم .

عدت الى ذاكرتي الورقية وكتبت هذه السطور بعد أن جاءنا خبر موت والد زوجتي ووالد أعز صديق عندي، وجد أبنائي الوكيل الثالث أبو راضي.

أنا في حيرة من أمري بين أن أخبر زوجة راضي – شقيقتي – ووالدته التي أقعدها المرض وزوجتي رضية وابنته راضية ، وبين أن أترك الأخبار حتى نصل غداً إلى اراضي عشيرتنا كما اتفقنا قلت لراضي :

ـ اذهب أنت اليوم بحجة أن والدك سيسافر الى لندن ليلتقي إبن الشيخ الكبير هناك ، وأنا والعائلتان و سنلحق بك غداً.

قال لي :

ـ وبماذا تخبرهم غدا؟

قلت له:

ـ اترك الأمر لي .

سافر راضي في الساعة السابعة ليلاً دون أن يعود الى البيت و يخبر والدته و زوجته – شقيقتي ـ وزوجتي – شقيقته وابنة المتوفي – بالأمر، أما أنا فذهبت الى البيت وأخبرت النساء في البيت ان راضيا سافر الى أراضي العشيرة ، لأن العم سيذهب غدا إلى لندن ، وطلب مني أن أرافقكن غداً بعد أن أطلب اجازة من المدرسة في الصباح ... إلا أنني – أخبرتهن لتترابط أجزاء الحيلة جيداً ـ استطعت أن أقنع المدير ليمنحني أنا وراضي الإجازة من بيته .

وانطلت الفكرة عليهن، وها هن يسطرن السوالف(*) عن لندن وصوغة(*) أبو راضي ، ونساء لندن ، وربما يأتي أبو راضي ومعه امرأة لندنية ، شقراء طويلة القوام ، ليست كبنات قبيلتنا- كما قالت شقيقتي هازئة – فيما ردت عليها زوجتي رضية مدافعة عن أبيها وهي تضحك:

- لم يفعلها أبي وأمي حية ترزق .

ردت عليها شقيقتي، زوجة راضي ضاحكة أيضاً:

- يا مأمن الماء في الغربال آمن بالرجال.

وشاركتهن العجوز المقعدة قائلة بإستهزاء:

- بعد ما شاب ودوه للكتاب.

خيم الصمت بعد أن قالت قولتها المرأة العجوز المقعدة ، وراح سواد العيون يدور في محاجره كأنه يبحث عن شيء ، عندها قامت العجوز بعد أن أسندتها رضية وذهبت لتستلقي على فراشها فإنطلقت ضحكة زوجتي وشقيقتي عالياً ، فيما كان أبناؤنا أنا و راضي يغطون في نوم هانيء ، و يحلمون بهدية لندنية جميلة وكانت والدتي قد طلبت منا أن تبقى لوحدها في البيت ، إلا اننا – أنا وشقيقتي ورضية - أصررنا على أن ترافقنا ، وقيدت كل ذلك في السجل واعدته الى الديلاب .

بينما كانت النجوم المتلألئة تطرز سماء اللّه الدنيا ساهرة تراقب ضحكات النساء وتندرهن، دخلت الى غرفتي واستلقيت على سريري بعد أن تركت نساء البيت يتضاحكن على أبي راضي وزوجته اللندنية ، ورحت أبحث عن أسرار الأيام القادمة الحبلى بالمجهول ، إلا انني لم أشغل بالي كثيراً عن مجهول الأيام الآتية

لانني لم أشعر إلا وزوجتي تناديني عند الساعة الخامسة صباحاً كي أنهض من النوم لنصل قبل ذهاب والدها الى لندن .

ضحكت في سري ، لا أكتمكم حزني على والد زوجتي ووالد زوج شقيقتي وصديق والدي رحمهما اللّه ، إلا أن ما قالته زوجتي هو الذي أضحكني ، حتماً ان تفكيرها وتفكير شقيقتي زوجة راضي قد تاها في شوارع لندن، وإلا كيف صدقن ان أبا راضي يسافر دون أن يمر على بيتنا في بغداد التي فيها المطار الدولي ؟ خاصة وقد أخبرتهن لضبط خيوط حيلتي أن طائرته ستقلع بعد منتصف الليل من هذا اليوم ؟

كانت شقيقتي هي الأخرى راحت توقظ الأبناء من نومهم . كانوا ينامون في غرفة واحدة مع رضية وأمها المقعدة ووالدتي . فيما راحت أمي المرأة العجوز تعد الشاي في المطبخ.

وأنا أغسل وجهي ، بدأت تداعياتي تقفز من مكان ذكرياتي... شريط طويل ... صورة للشيخ الكبير وهو على فراش الموت وأنا اقبّل قدميه ...صورة أخرى وأنا أخرج من المضيف الكبير دفعاً ... صورة ثالثة لرجال القبيلة أجمعهم الساكنين على أرضها أو في أماكن أخرى وهم يدقون الأرض دقاً والهوسات تتعالى فيما ترفرف الاعلام والرايات على رؤوسهم ... صورة آخرى لي أنا وابنة عمي وحبيبتي وخطيبتي التي لم أسمع عنها خبراً ما إلا خبر موتها ، في غرفة ماكنة الماء ، فيما لاح راضي في نهايتها وهو يراقب الطريق الى الغرفة التي كنا فيها... إلا أن صورة أيام المحنة هي التي تضخمت أمام ناظري حتى انني لم أتناول الفطور كبقية افراد العائلتين ورحت أشعل لي سيكارة دون أن أدخل شيئاً في معدتي ... وعندما رأتني والدتي أدخن نهرتني بصوت حنون ، قائلة : ان هذا مضر بالصحة ... أومأت لها علامة القبول ، ورميت عقب السيكارة بعد ان كاد يحترق هو الآخر .

وقبل أن أصل إلى الفصول الأخيرة لرواية أوراق المجهول أطلب منك عزيزي القارئ اللبيب أن تشاركني في التصور ، فأقول لك : عندما وصلنا الى أراضي قبيلتنا وكانت الساحة المطل عليها باب المضيف الكبير مليئة بالاعلام والبيارغ والرجال الذين يعدون على أصابع اليد، شعرت بأن وجوه النساء اللائي معي في السيارة قد تغير لونها ، ولا أكتمك سراً عندما اقول انني لم أكن وقتها أعرف السبب الذي دعى الى تلون وجوههن ، هل هو إحساس بفقد عزيز ؟

أم انه احساس بفقد شخص ربما يعيق سفر الأب الى لندن ؟

كل شيء في مكانه كما تركناه نحن ،أو كما تركه المرتحلون من ناس القبيلة بعد أن أخبر الوكيل الأول بخبر الوصية ، المضيف الكبير في مكانه، والدار الكبيرة في مكانها ، ومنازل الطفولة والصبى والشباب ، كل شيء في مكانه، إلا أن الذي لم أره أو ألمسه هو ذلك الشموخ الذي كان يعيشه ذلك المضيف وتلك الدار الكبيرة . فقد ماتت روحهما وذبلت أيامهما بموت الشيخ الكبير ، وحتى قبيلتنا التي كانت في السطور الأولى للزمن أصبحت على هامشه ، و "بواري" المضيف قد تغير لونها ... إسودت بزنجار(*) الفصول الأربعة ، والباب الصاجي للدار الكبيرة قد أكلته عثة الزمن ، وتشرب الزمن لونه الصاجي ، كما تشرب قاع النهر مائه ، وكبر الأطفال وهرم الرجال ... كل شيء قد تبدل ... وقد تبدل الوكيل أيضاً .

شاركني أيها القارئ – للمرة الثانية - في معرفة ذلك ، لأنني تعبت من كتابة هذه الرواية ، وتداعي الصور وبالألوان في ذاكرتي، فقد وجدت كل شيء في مكانه، المضيف الكبير يتلألأ بخجل تحت أشعة ذلك اليوم ، وملاعب الصبا ، وأماكن الخلوة لي ولخيرية ، قد لعب فيهما الزمن كما يلعب طفل غر

بلعبة مركبة من أجزاء . لقد رأيت بأم عيني هاتين اللتين سيأكلهن الدود أن السوس نخر كل شيء على أراضي قبيلتنا لقد انهار كل شيء أمام عيني.

وأيضا أرجو أن تساعدني ، أو تشترك معي في التصور أو التخيّل في رسم صورة للنساء اللائي معي في السيارة عندما وصلن الى بيت أبي راضي ، ساعدني في رسم صورة لما حدث لرضية وأختها راضية ووالدتهما المخدرة بآلام المفاصل . وأمي العجوز التي برقعت وجهها قطعة من القماش الناعم الأسود منذ أن توفي والدي رحمه اللّه ، وشقيقتي ، عندما سمعن صوت العدادة يأتي من بيت أبي راضي الذي ظل وحيداً في بيته منذ أن سكنا بغداد ، وكيف ملأ سمعهن صوت ردح الرداحات، وولولة المولولات، وصراخ الصارخات ، وتذكر أن لكل انسان سلوكية معيّنة عند الحزن بفقد عزيز .

لا أريد أن أنقل لك ما حدث للنساء اللاتي جئن معي من بغداد فهي صورة مألوفة لمن فقد أب ، أو أم ، أو عزيز عليه ، وقد وقف قلمي عن الكتابة على الورق ، وترقرقت الدموع في عيني، كما إنشلت أصابعي فلم تضرب مفاتيح الحروف عند كتابة هذا الفصل من الرواية، كان موقفا صعباً ، إلا أن الأصعب منه هو المهزلة التي حدثت في المضيف الكبير .

كان من ضمن حضور مجلس الفاتحة، الرجل الذي قرأ الورقة التي مات بسببها أبي ، هو نفسه الرجل الذي طلبه الوكيل الثاني ليقرأ ورقة ابن الشيخ الكبير الذي يعيش في ديار الغربة ، قام هذا الرجل (رديف) من مكانه في المضيف الكبير ، البدلة الفرنجبة ذاتها التي كان يرتديها قبل سنوات ، صاح بالحضور بعد أن قرأ على روح أبي راضي سورة الفاتحة وطلب منهم أن

يدعون له اللّه أن يغفر له ذنوبه ويسكنه فسيح جناته، صاح بجفاء :

- يا رجال القبيلة هذه برقية من ابن الشيخ الكبير الذي يدرس في لندن فرج اللّه عودته لنا سالما ، سأقرأها عليكم .

تصاعدت الهمهمات من الرجال الجالسين في المضيف الكبير قام رجل في العقد السادس من عمره ليخرج من المضيف ، إلا انه رد من قبل رجال (رديف) الذين يرتدون البدلات الافرنجية السود ويضعون النظارات السود على أعينهم ، فعاد إلى مكانه منكسراً لا حول ولا قوة له ، وراح (رديف) يقرأ:

من ابن الشيخ الكبير الى أبناء قبيلتي

نصبت وكيلاً لي على حقوق المشيخة الشخص المدعو (رديف) فساعدوه... والسلام عليكم .

إنتكست رؤوس بعض الحاضرين في المضيف الكبير، الذي راح كانون طبخ القهوة المرة يتأجج ناراً بعد أن أضاف له القهواتي قليلاً من النفط ، فيما قام شخص متوسط العمر وأنكر البرقية الا أن الرجال الذين دخلوا المضيف مسرعين تلاقفوه بين أيديهم حتى وضعوه في سيارة أحدهم وذهب به الى مكان مجهول ولم تعرف عنه عائلته شيئاً بعد ذلك ، فيما قام مجموعة من الرجال من كبار السن يهنؤون الوكيل الجديد ، أما الآخرين وهم الأصغر سنا فقد خرجوا خلسة من المضيف الكبير وتواروا عن أنظار جماعة الوكيل الجديد الذين تركوا باب المضيف الكبير وأحاطوا برجلهم ، ولم يبق جالساً سوى راضي وأنا و نحن ننظر الى المهزلة التي أمامنا ، وعندما انتهت المسرحية هذه ترك الوكيل الجديد المضيف الكبير ولم يوص بأي مساعد له .

بعد عودتنا من أراضي العشيرة ، طلب مني راضي أن أعيره السجل ، الذاكرة الورقية ، لأنه – كما أخبرني – هناك ما يريد أن يدونه من مشاعر أججتها وفاة أبيه ، أخذ السجل وراح يدون فيه مشاعره ، ومما كتبه :

(اليوم فقط تكشفت أمامي صورة الرجل الذي كان والدي الرجل الذي لولا انه قد نام مع أمي لما كنت أنا أحيا في هذا الوجود الدامي ، لقد وضعني موت أبي وجها لوجه مع الموت الذي لم أكن أراه عندما يحدث للآخرين ، لقد رأيته هذه الأيام ، وعرفت أن الموت هو الحياة ، فعندما يموت الشخص تبدأ الحياة ، تبدأ الذكريات تنثال ليس من الذاكرة وإنما من القلب ، لتمحو بجريانها كل الذكريات المسجلة على تلافيف الدماغ ، ولولا هذه الذكريات المسالة لِما احتملنا الماضي ومآسيه، لقد كان أب لي بحق ، و لولا أبوته لِما عشت ولِما كبرت ولِما تعلمت ولِما تزوجت ، أما قبوله المشاركة في الكذبة الكبرى تلك فقد كانت – كما أرى – هي صورة من صور الميل الانساني للارتقاء الى الأعلى ، حتى لو كان ذلك الأعلى مبني على جرف هار).

ثم سلمني السجل وهو يمسح دمعة سالت على خده ، وقال بنبرة حزن بادية على وجهه :

- لقد تعبت .

***

الورقة السابعة عشرة:

أراضي قبيلتنا تئنّ مجروحة، رقصَت فوق مسرحها عشرات العشائر والأفخاذ والأسلاف بناسها وحيواناتها ومزروعاتها ، إلا أنها مع كل أسف غادرها الناس والحيوان . تفرق الجميع في أماكن لا تعرف أية بوصلة إتجاهاً لهم، فيما ماتت مزروعاتها، وأستوطنتها المحنة والخراب والهوام، ونعق فيها الغراب ، وأصبحت بيوتها اطلالاً .

في صبيحة يوم من أيام الله الأزلية، و بعد انتقالنا بسنوات أنا وعائلتي وعائلة راضي إلى بغداد ومعنا أم راضي المرأة جليسة التهاب المفاصل والمنكسرة بموت زوجها ، وقد لحقته لتقابله في المكان البعيد بعد شهرين بالضبط من رحيله عن دنيا الله دونت في سجلي الخاص ما يلي من السطور ، كتبت :

عند تنصيب كل وكيل جديد يحدث أنشقاق في ما تبقى من قبيلتنا . وكل من يتركها يرتحل الى الجهة الغربية من العراق ليكوّن هناك أسرة وصداقات ومصالح تجارية وإجتماعية ، ويزوّج أبنائه من تلك المنطقة . وعندما تسأل أي شخص من المرتحلين يجيبك فوراً : شبعنا كذب الورقة العراقية الصنع .

كانت قبيلتنا واحدة من قبائل العراق الكبيرة التي كانت حاضرة في كل شيء مع قبائل العراق الشرقية والغربية . وكان حالها حال القبائل العربية الأخرى الوافدة منذ آلاف السنين من شبه الجزيرة العربية . إلا أن المحنة التي حدثت بعد موت الشيخ الكبير قد أطاحت بها ، فقد تركها هملاً كما قال لي أبي مرة ، بلا شيخ يقودها ويلم شتاتها ويشارك القبائل الأخرى همومها خيرها وشرها .

وعندما ظهر شيخ العماريين بتلك الوصية ، تبخرت القبيلة وكأنها لم تكن في يوم ما قبيلة كبيرة يحسب لها ألف حساب في كل شيء، أصبحت مجموعة من المكونات الاجتماعية التي إنصهرت مع تجمعات اجتماعية أخرى وذابت فيها مصاهرة وعملاً ومصالح .

عزيزي القارئ اللبيب ها أنا أستدعيك مرة أخرى لتساعدني في أن أكتب لك رواية فنية تستقيم وشروط الرواية ، إلا أن القلم أخذني إلى علوم أخرى ، وأدخلني في متاهات علم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم التاريخ وعلم الجغرافية وغيرها من العلوم ، إذ تراني وأنا أسجل دقائق الأمور عن هذه القبيلة أرتاد دون وعي مني هذه العلوم ، فإن كان في ذلك فائدة، ففيما ذكرت كل الخير وان لم تكن فلك الحق أن ترمي كل هذه الاوراق أو بعضها وراء ظهرك ، فأنا فيما كتبت لم أكن معك كالسيف المسلط على رقبتك، كما كانت الاوراق المحلية الصنع المرسلة من قبل ابن الشيخ الكبير الغائب الحاضر على رقاب أبناء قبيلتنا سيفاً مسلطاً .

ها أنا أدون ما أدونه من فم الشيخة أو العمة وردة ، كنا في حضرتها أنا وراضي والعم نهر . أربعة أشخاص ضمتهم غرفتها المضاءة بمصباح ٦٠ واط يبث نورة الأصفر الشاحب داخلها. وردة الشيخة التي خرجت من المولد بلا حمص ، لأن الحمص أكله شيخ العماريين وابنه وشاركه فيما فضل منه أبي وأبي راضي وأم الشيخ الكبير التي طردت وردة من الدار الكبيرة، ثم جاء رديف رديف الذي لم يكن من قبيلتنا ولا نعرف له نسباً سوى أنه كان رئيس حماية ابن شيخ العماريين الذي اصبح وكيلاً لابن الشيخ الكبير الذي لم يره أحد من أبناء قبيلتنا لا كبيرها ولا صغيرها لا رجالها ولا نسائها ، في الوقت نفسه أزدادت ثروة من يكونون وكلاء عنه ، وراحوا يبنون العمارات والقصور ، ويتزوجون مثنى

وثلاث ورباع كما حدث لرديف ، اذ جمع في مزرعته التي اشتراها قبل أشهر أربع زوجات توزعن على أربعة قصور فاخرة في المزرعة وهناك أربع سيارات أمريكية الصنع تقف أمام باب كل قصر يقف بالقرب من بابها الخلفي سائق خاص بإنتظار أحدى زوجات الوكيل ليأخذها الى مكان ما لترفه عن نفسها التي ملت رؤية جدران القصر، أو لتتسوق من مولات الكرادة أو المنصور .

كسر ما كان بيننا من صمت ، صوت العم نهر وهو يسأل وردة الشيخة ، أو العمة :

- يا وردة - كان العم نهر الوحيد بيننا الذي يناديها بإسمها لأنه أكبر منها سنا – إخبريهم عما قاله لك الشيخ الكبير رحمه الله في تلك الليلة التي عدتم فيها من بغداد بعد أن أجريتم الفحوصات الطبية ؟

قالت وردة بعد أن مسحت دمعة سقطت من عينها :

- يا نهر ، لماذا تريد أن تهيّج جروحا أحاول سنوات أن أنساها ؟

خرج راضي من صمته ، وسألها :

- كلنا في الهوى سوى ، كلنا مجروح ، وكلنا نكابر لننسى آلام تلك الجروح .

قالت:

- هذا صحيح يا راضي ، إلا أن الكذب أصبح هو الصدق .

وكمن يتقدم بحذر على أرض زلقة مملوءة بالوحل ، قلت لها :

- لم يكن الكذب قد تحول الى صدق ، إلا أن الناس ، أقصد أبناء قبيلتنا ، ملوا الحديث في ذلك ، وأصبح يومهم البحث والحصول

عن لقمة العيش بستر وأمان ... هذا هو همهم اليومي... لا يريدون المشاكل .

ردت وردة قائلة :

ـ هذا صحيح لو أنهم لم يعطوا قسم من غلتهم الى الوكلاء المدعين كذباً ، من رآى منكم أو منهم ابن للشيخ الكبير ؟... ها ... قل لي ؟

قال راضي وكأنه يجيب عن سؤالها:

ـ كل أبناء القبيلة ، الساكن على أرضها، أو المرتحل عنها لا يصدقون هذه الادعاءات ، إلا أن الذين بقوا على أرض القبيلة يقولون نعطي ما عندنا ولا نترك الأرض لغيرنا .

قالت وردة :

ـ اذن هم غير مصدقين بوجود الابن الغائب ؟

أجبتها نافياً:

ـ ولا أبي .

صاح راضي :

ـ ولا أبي ايضا .

قالت وردة مندهشة :

ـ كيف ذلك ، أبوك ياخيري مساعد الوكيل الأول ، وأبوك يا راضي مساعد الوكيل الثاني، و أصبح الوكيل الثالث ، كيف ذلك؟

قلت:

ـ الفلوس تعمي النفوس.

بكت وردة ... لم أرها تبكي مثل هذه المرة حتى أن بكاءها أمتد لوقت طويل أوقفه العم نهر بقوله:

ـ وردة ... هذا الجواب الصحيح ... الفلوس تعمي النفوس ... الم أقل لك ذلك عدة مرات ؟ ألم أقل لك أن والدتي رحمها اللّه قد أعمتها الفلوس ؟

لم تخبرنا وردة ما طلبه منها العم نهر ، لأننا قطعنا حوارنا واستأذنا منها بالخروج ، كانت تبكي ... هل كانت تبكي حالها، أم تبكي الشيخ الكبير الذي فقدت سنداً بموته ... أم تبكي أباها الذي تركها مع شقيقاتها لا معيل لهن سوى رحمة اللّه كما قالت ، ولولا العم نهر لبارت أخواتها ولم يتقدم للزواج منهن رجل واحد، إلا أنه سارع وخطبهن زوجات لأبنائه ... أم تبكي حضنها دون طفل ؟ المهم أنها بكت ... راحت تنشج كالثكالى ... كانت هي ثكلى ... كانت منهن وليست مثلهن ... فأردنا أن نرحم حالها ... أسرعنا بالخروج أنا وراضي بعد أن ودعناها وتخلف عنا العم نهر وهو يواسيها ... ثم بعد دقائق لحق بنا .

قال :

ـ لقد عادت الى سنوات عزها المفقودة.

قال راضي مواسياً:

ـ ليكن اللّه في عونها.

ثم راح العم نهر يسرد علينا ما دار بين اخيه الشيخ الكبير وبين وردة بعد الفحص الطبي لهما . كانت وردة مهيأة للا نجاب إلا أن العقم عند أخيه الشيخ الكبير، لهذا قال لها كما أخبرنا العم نهر :

ـ أنتِ في حل من أمرك ... سأطلقك ليمتلأ حضنك بالأبناء من رجل آخر ... إلا أنها رفضت... رفضت بشدة ... وحلفت برأس العباس(*) اذا أرغمت ستحرق نفسها بالنار . عندها سكت الشيخ الكبير ولم يقل لها كلمة تسيء لها طيلة حياته الباقية.

***

الورقة الثامنة عشرة:

لم يكن الماضي بعد هذه السنوات الطوال قد غرق في عتمة ضبابية في ذاكرتي . فقد أصبحت ذكريات تلك الأيام معششة فيها ، سهلة التداعي إلى واجهتها وكأني أستدعي طفلي الزاحف على الأرض ليأتي بين أحضاني . كانت تلك الذكريات كشريط سينمائي وبالالوان تتراقص صورها أمام عيني ، واضحة مشعشعة بارقة كأنها في وضح النهار.

فيما كان راضي هو الآخر – كما أخبرني – ما زالت الذكريات تلك كأنها حدثت بالأمس ... طرية كصبية في ربيعها الرابع عشر... لم تغب عنه لحظة واحدة بعد أن وصل نارها اليه ... أخبرني انه لم يعبأ بها عندما كانت في بدايتها... لم يخض في تفاصيلها ... ولم يناقش أحداً عنها ، إلا أن خطبة الوكيل الثاني لأخته رضية قد أجج في نفسه كوامن أسئلة يريد معرفة الاجابة عنها ... كان يريد – كما أخبرني – أن يفضح القائمين بها ، وكما قال لي مرة وللعم نهر :

ـ ان أشد ما يخيفني هو المجهول ، ذاك الذي لا أفهمه.

وها نحن قد وصلنا الى عمر الكهولة ، خمسة وثمانون عاماً لكل واحد منا ، اذ كنا قد ولدنا في عام واحد . وها اننا نعيش في بيت واحد بمفردنا بعد ، ان ماتت أمي وأمه ، وماتت الزوجات الحبيبات ، والشقيقات الحنونات ، وبعد أن مات بعض من أبنائنا وبناتنا الذين لم يقدر لهم الله أن يعمروا طويلاً . وها ان أحفادنا أصبحوا أباء لبنين وبنات يبحثون عمن يشاركهم الحياة من الزوجات والأزواج .

وها أن السجل ما زال كما هو ، ألا أن العمة وردة قد تذكرها الله قبل العم نهر بأشهر قليلة ، فقبضهم اليه قبل سنين بعيدة كل شيء قد تغير إلا أن النفس تعيش على ما جبلت عليه .

أما خيرية فقد تذكرها الله وأخذها الى جواره قبل أكثر من ثلاثين سنة بالضبط . قال من أتى بالخبر انها ماتت دون أن تتزوج ولم يقل من نقل الخبر سبب عدم زواجها ، إلا انني كنت أعرف كما أعرف انني قد خنت حبنا .

وفوزة ، هي الأخرى كما نقل أحدهم الخبر إلى راضي لم تتزوج وماتت بعد عمر طويل .

وتزوجت رضية ، وكانت مرتاحة بزواجها من أحد شباب محلتنا كان ضابطاً في الجيش، وكان والده ممن ارتحل مع المرتحلين من قرية أخرى تسكنها عشيرة من عشائر قبيلتنا الكبيرة .

عندما نفتح السجل أنا وراضي، فأن أكثر من صورة تتداعي من ذاكرتينا اللتين اصبحتا ذاكرة واحدة .

قرأنا في ورقة من ذاك السجل : ان الوكيل الرابع قد انتقل الى رحمة الله .

عندها راحت الصور تتداعى من الذاكرة كما كانت تتداعى في تفكير راضي .

جاءنا خبر وفاة الوكيل الرابع بعد أن قبض الله العمة وردة والعم نهر بسنوات . كنا أنا وراضي نحضر حفلة زفاف حفيد راضي لأمه ولابن لي على احدى بنات واحد من أبنائي ومن ابنة راضي . كان الزواج بين أبنائنا قد اكتمل ... رجلان وامرأة مني ومن زوجتي ، وامرأتان ورجل من راضي وشقيقتي . كنا للتو قد أنهينا وليمة الرجال عندما بدأ التهامس بين الضيوف بخبر وفاة الوكيل الرابع ، رديف، الذي لم يترك له مساعداً على أراضي

القبيلة، بل كان يجمع حق المشيخة بيديه ، ويرسلها – هكذا كان يقول الى ابن الشيخ الكبير ، أما نحن الثلاثة ، أنا وراضي والعم نهر قبل أن يتوفاه الله فلم يندق بنا ، كنا نذهب للحصول على غلتنا من الفلاحين على أرضنا بيدينا .

عرفنا في اليوم الثاني أن لا أحد أخرج من جيبه ورقة محلية الصنع قادمة من ابن الشيخ الكبير لتعلن اسم الوكيل الجديد .

قالت الأخبار التي تناقلتها الألسُن فرحة: ان الوكيل هو الذي أخرج من جيبه الورقة المحلية الصنع وراح يعلن أن ابن الشيخ الكبير لم يعين وكيلاً له، لأنه قد ترك حق المشيخة الى أبناء القبيلة، كل يتصرف بها على هواه ... فمن يريد أن يصرفها في أعمال الخير فله الحق في ذلك ، ومن يريد أن يصرفها على عياله فله الحق . وبدأت الكتابات تنتشر بين العامة لمؤلفين مجهولين . وراحت المطابع تنشر كل شيء عن ابن الشيخ الكبير الذي يدرس في لندن. فهو دكتوراه في الاقتصاد مرة، وبروفيسوراً في السياسة ثانياً. وأخرى في كيفية زراعة النخيل والرقي ، والرابعة ... والخامسة ... وبدأ تلاميذ المدارس الابتدائية يتلقون دروسا خاصة عن حياته . وراحت كل الكتابات المدرسية والعامة تصف هذا الابن غير المرئي وغير المعروف وغير الملتقى به وصفاً من الحجم الكبير . فهو مرة شيخ الشيوخ ، وأخرى كما تصفه الأناشيد المدرسية صديق للاطفال والطيور والأشجار . ومرة – خاصة في الكتب التي تطبعها المطابع للعامة – يكلم الحيوانات بلغاتها كنبي الله سليمان ، بل زادوا وذكروا أنه يكلم الجن أيضاً وهو – كما يذكر كتاب الجغرافية للصف الرابع الابتدائي - أنه يسيّر الغيوم ، ويوزع سقوط الأمطار على البلدان . انه بكل صراحة تلك الكتب المدرسية وغير المدرسية يمتلك السر الأعظم كما صرح في أحدى خطبه في راديو القبيلة الوكيل الرابع قبل

أن يتوفاه اللّه. إلا أن كل من التقى هذا الوكيل يوقن أنه الشيطان الرجيم بلبوس راهب متنسك.

قلت للحاج راضي، بعد أن استخدم العصى ليتوكأ عليها :

- هل انتهت محنة أبناء قبيلتنا أم لا ؟

قال بنبرة رجل عجوز حكيم :

- لا أدري يا حاج خيري ... العلم عند اللّه .

كان جوابه صحيحا ودقيقا ... العلم عند اللّه ، لانه في اليوم الثاني وجدنا راضي جثة هامدة على فراشه ، رحمه اللّه ... وها أن حركة ساقيّ قد بدأت تهدأ قليلا قليلا ... شعرت أنهما ذابلتان ... خيارتان ذابلتان ... و راحت بعد أيام ذاكرتي تمحي صورها شيئا فشيئا . وها أن أحد أحفادي يسجل في السجل هذه السطور وأنا بين يدي الرحمن الرحيم .

أنا بين يدي الرحمن الرحيم لا أحتاج الى قاض يكتب وصيتي . فقد مات والدي وماتت والدتي ، ولحقتهما زوجتي رحمهم اللّه جميعا ... وظل أبناء قبيلتنا الساكنين على أرضها وغير الساكنين على تلك الأرض ممن عمر طويلا أو ممن كان طفلا وقت المحنة، منقسمين فيما بينهم ... فمنهم من ظل ولائه للوكلاء وراح يظن أو يعتقد أو يأمل بأن ابن الشيخ الكبير سيعود يوما الى أرض القبيلة ليوحد أبنائها ، ويقودهم بين القبائل الأخرى الى العز الذي فقدوه بموت الشيخ الكبير . ومنهم من تناسى أيام المحنة وأصبح من أبناء المنطقة الغربية بعد أن ولد لهم الجيل الرابع من الأبناء من خلال المصاهرة بينهم وبين الأبناء الأصليين لقبائل المنطقة الغربية... كل شيء جائز في هذه الدنيا ، إلا أنني أردد وأنا بين يدي الرحمن الرحيم : لا يعرف الغيب إلا اللّه .

***

ورقة خارجية ثانية :

لم تكن الورقة الخارجية الأولى إلا ورقة ضمت سطوراً هيأتنا أنا وأنتم لدخول عالم المجهول. أما هذه الورقة فتضم سطوراً غايتها غلق هذا العالم . والخروج منه لتخبرنا بالحقيقة كاملة .

كانت لي جدة لأمي ، إلا أنها لم تكن حكواتية، لا بالمعنى الدقيق لهذه اللفظة ولا بمعنى أبسط من ذلك . ولم أسمع أنا ولا أخوتي أية حكاية من فمها ، بل كنا أنا وأخوتي نسومها العذاب عندما تزورنا. كانت (شقاوة جهال)(*) كما قالت مرة والدتي – لا أقصد والدة خيري أو والدة راضي – لأمها المبتلاة بشقاوتنا .

كانت جدتي من العجائز المؤمنات اللائي لم يتركن فريضة إسلامية إلا وأدّنها ، حتى أنها حجت الى بيت اللّه . وكانت – كما أسميتها بعد أن كبرت، إمرأة متطهرة – أي أنها تشك في طهارة كل شيء . وكنا نحن أبناء ابنتها نعرف هذا جيداً فكنا نضع أيدينا في الماء الذي تتوضأ به ، أو نشرب من (طاسة الروبة) (*) التي "تيدم" بها (التمن) (*)عند العشاء ، أو أننا نلتحف بعباءتها التي تصلي فيها ، أما هي فقد كان رد فعلها قولها لنا بعد أن تجر آذان كل واحد منا : شياطين ، لا فائدة منكم . ثم تأخذ عباءتها لتشطفها(*) وتذكر اسم اللّه عليها . فيما نحن نقف قربها ضاحكين . أو أنها في تلك الليلة لم تضع الروبة إيداماً للتمن فتأكله دون إيدام .

لم أشاهد الهند طيلة عمري ، ولم أقرأ كتاباً عنها ان كان ذلك الكتاب عن تاريخها أو عن جغرافيتها أو ملوكها .

ولم أر ملكا إلا في الصورة ، وكان عمري ستة أعوام عندما حدث انقلاب عبد الكريم قاسم على الملك الشاب فيصل الثاني الذي قتل فيه. ولم أقرأ عن حياته أو حياة أبيه الملك غازي، أو حياة جده الملك فيصل الأول إلا النزر اليسير .

ولم أعرف شخصا مجهولاً ، إلا أنني عندما كنت صبياً ، كنت أذهب مع أقراني إلى مقبرة صغيرة تبعد عن بيوتنا مسافة أقل من نصف كيلومتر لنلعب كرة القدم ، وكانت هذه المقبرة تسمى مقبرة (المياهيل)، إذ يدفن فيها من يموت في المستشفى ولم يعرف له أهل من قبل البلدية، ثم أصبحت مقبرة للاطفال الصغار الذين لا يحاسبهم الله لعدم دفنهم في مقابر النجف.

اما كلمة (المياهيل – جمع ميهول) فهي اللفظ العامي عند أغلب أبناء الجنوب للفظة (المجاهيل) أي مجهول الأهل. اذ كثيراً من اللهجات الدارجة في أقطارنا العربية يكون فيها البدل في الحروف شائعاً . فالجيم مرة يكون ياءً، ومرة كافاً فارسية ، والقاف تصبح غينا... الخ .

بعد أن كبرت وأكملت دراستي في الجامعة ، وبعد أن تعلمت حرفة كتابة القصة القصيرة والرواية ، رحت أبحث عن موضوع يصلح أن يكون رواية ، فإئتلق في ذهني هذا الموضوع كما يأتلق القبس الذي يشبه الذي وعد به نبي الله موسى عائلته. كان الموضوع هو نفسه الذي روته لنا جدتي عندما كنت صبياً أقصد ، هكذا تصورت أنها حكته في ذلك اليوم الممطر، على الرغم من أنها لم تكن راوية للحكايات . أو ربما رأيته في حلم ليلة صيف وأنا نائم على سطح دارنا . أو ربما قرأته ضمن ما قرأت في فترة صباي أو شبابي من حكايات كثيرة، ان كان ذلك في الف ليلة وليلة ، أو في كتاب آخر للحكايات، المهم هذه رواية كتبتها .

لهذا ترى أيها القاريء اللبيب أن خيري – ربما ـ هو أنا ، وأنا – ربما ـ خيري ، و ما وجود شخصيات أحدهم تكتب الرواية بواسطة القلم والورقة ، أو بضرب مفاتيح لوحة حروف الحاسوب ، لتظهر على الورقة البيضاء الافتراضية على شاشة الحاسوب ، والأخرى تنظم وتلم وتخبر عن أحداثها ، إلا لعبة روائية كنت قد تعلمتها عند قراءتي لمئات الاعمال الروائية لاساطين الرواية في العالم .

لا أكتمك سراً أيها القاريء اللبيب – وقد طلبت مساعدتك مرتين أو أكثر ـ عندما أقول أن ما تقرأه هو ضرب من الخيال الخيال الملتبس بالفن كما يلتبس إبليس في النفس البشرية . انه خيال فني ، تصور ذهني ، حلم يقظة أو حلم نوم ، سطور على الورق الصناعي أو الورق الافتراضي ، فلا أريدك أن تنخدع – حاشاك – بهذه الحيلة كما ينخدع بعض الناس بألعاب الخفة على أنها نوع من السحر الذي ذمه القرآن . ان هذه الرواية هي خيال لمخيال – ربما – كان فائراً حاراً في ظهيرة يوم تموزي حار .

فشقيقتي لم يكن اسمها كأسم شقيقة خيري في الرواية . ولم يكن لي صديق مثل راضي ، أو زوجة لها اسم شقيقة راضي ولم يكن لي عم لتكون لي علاقة حب مع ابنته كما كانت بين خيري وخيرية . ولم أولد في القرية ، اذ أنني ولدت في مركز المحافظة ، وتعلمت بمدارسها التي تضم خيرة المدرسين والمختبرات العلمية والنشاطات الفنية في الرسم والمسرح وكنت أكتب لحبيبتي – هكذا أزعم أنني أحببت فتاة كانت لا تعيرني أدنى اهتمام – بعض أشعار الغزل التي أجمعها من عدة قصائد معروفة وكان نزار قباني مساعدي في كتابة الشعر .

هذه هي روايتي التي بين أيديكم، ولكم الحق أن تسألوني من أين أتيت بموضوعها ؟ والحق أقول لكم: لا أعرف... فإن أعجبتكم فلي الحق أن أنتشي زهواً بقبولكم لها، وان لم تعجبكم فهي مردودة علي وشاكراً لكمّ قراءتها.

***

كلمة أخيرة:

(الجهل يعمي أبصارنا ويضللنا

أيها البشر الفانون!أفتحوا عيونكم!)

دافنشي

***

معجم ما استعجم:

* لانني لا أكذب و انما أجمل :عنوان لفيلم مصري بطولة احمد زكي بصيغة لغوية اخرى.

* منقلة: كانون النار.

* أكو ماكو ، اكو فد ملك: جملة استهلالية لأية حكاية شعبية . وأكو ماكو: قيل عنها انها من أصل سومري، ولهذا يستخدمها أبناء الجنوب خاصة ، وأكو : بمعنى يوجد.

* البواري :جمع بارية ، وهي الحصيرة المضفورة من عيدان القصب المهشمة .

* العرضة او العراضة :هي تجمع أبناء عشيرة لحضور مناسبة (حزن أو فرح)عشيرة أخرى ، ويقابلهم أبناء تلك العشيرة صاحبة المناسبة ، وهم يهزجون ويدبكون والرايات فوق رؤوسهم .

*السادة: هم الاشخاص الذين من ذرية النبي محمد.

*غرفة الخطار:غرفة الضيوف.

*فوطهن: جمع فوطة : وهي الشيلة ، غطاء لرأس المرأة ،نسيج شبه مستطيل من خيوط حريريه سوداء تنسج بطريقة معينة يلف بها رأس المرأة .

*العدادة : إمرأة تقوم بقراءة التعازي وتعداد مآثر الميت.

*الداد :لفظة تطلق عند الغضب من شخص ما.

*الهوسات: جمع هوسة. وهي بعض الأبيات الشعرية التي تختم ببيت شعري راقص، يجعل سامعه يتجاوب معه ويدبك على الأرض ، وينظم البيت بنظام خاص.

*محفوظ:لفظة احترام تقال عند مخاطبة الشيخ أو المسؤول الحكومي الكبير ، وتعني : حفظكم اللّه.

*الاواني الصينية : أواني خزفية .

*الجبنة: تقرأ بالجيم المثلثة ، وهي مادة اسفنجية ذات كثافة عالية أكثر من الاسفنج.

*عند المسلمين ، يتم العقد في بيت الفتاة ، وذلك بأن يسألها رجل الدين أن تقبل به وكيلاً عنها والقبول بفلان زوجاً لها ، فتتردد الفتاة – بتوصية من أمها حفاظا لسمعتها – بالقبول، إلى أن يكرر سؤاله ثلاث مرات أو أكثر، عندها وبخجل تقول: قبلت .

*عقال شطراوي: الشطراوي نسبة الى قضاء الشطرة أحد أقضية محافظة ذي قار ويتصف هذا العقال بالسمك الزائد .

*خلفوني:من الخلف ،أي أجدادي.

*الدَلالة: إمرأة تدور على البيوت لتبيع بعض الملابس واللوازم البيتية.

*إحديثات:جمع إحديثه ، أي صبية عند أبناء الجنوب .

*صعد لحم ...نزل فحم: هوسة رددها أبناء الجنوب عند وفاة رئيس العراق في منتصف ستينات القرن الماضي (المرحوم عبد السلام عارف) عندما تحطمت به الطائرة العمودية التي كانت تقله في البصرة .

* نحن دفناه سوية: مقولة مشهورة وقد بنيت عنها حكايات شعبية كثيرة ، وتعني : اننا نعرف كل شيء.

*الجريد: جمع جريدة ، نصل السعف.

* السركال: هو رجل الشيخ الأول في العشيرة.

*فلكش: خرّب .

*جك: اناء أكبر من القدح لحفظ الماء أو لتبريده بالثلج.

*لم يندق بي احد منهم:لم يتحرش بي.

*أبو غائب: كنية يستخدمها أبناء الجنوب لمن لا يولد له خلف ، وفي أيامنا يكنون الذي لا خلف له بـ (أبي إنتظار).

*في الوجه مرايه وفي الظهر سلايا:مثلا يردد عند وصف شخص مرائي.

*سناين:جمع سنينة ، وهي مؤنث السَنة ، القانون أو العرف العشائري .

*المرق: الحساء.

*الشيلة والعصابة:الشيلة إيشارب أسود يلف حول الرأس بطريقة خاصة. أما العصابة فهي قطعة سوداء تلف على قمة الراس بعد ارتداء الشيلة.

*شنقة: تلفظ في الجنوب (شنكه) بكاف فارسية ، وهي فسقة العجين .

*الديرم: لحاء شجر معين تصبغ المرأة به شفتيها بلون قهوائي للزينة أو الدواء.

*السوالف: جمع سالفه ، وهي الحكاية أو القصة .

*صوغة: هدية المسافر عند عودته.

*الزنجار: الصدأ.

*رأس العباس: قسم يستخدمه الشيعة ، ويعنون به سيدنا العباس ابن علي بن ابي طالب.

*شقاوة جهال:جهال: اطفال . من جاهل.

* جهال: جمع جاهل وهو الطفل.

*طاسة الروبة: طاسة : أناء معدني أو المنيومي أو لدائني . الروبة : اللبن الخاثر.

*التمن: الرز.

*لتشطفها :لتغسلها.

١٧ ك١ ٢٠٠٧ ـ ١١ / ٦ / ٢٠٠٨

صدر للمؤلف :

١ ــ القصص الشعبي العراقي من خلال المنهج المورفولوجي – دراسة بغداد – دار الشؤون الثقافية العامة ـ١٩٨٦ .

٢ ــ ابابيل – رواية – بغداد – دار الشؤون الثقافية العامة ـ ١٩٨٨ .

٣ ــ طائر العنقاء – قصص قصيرة – بغداد – دار الشؤون الثقافية العامة ـ ١٩٨٨

٤ ــ طريق الشمس – رواية – بغداد – دار الشؤون الثقافية العامة ـ ٢٠٠١ .

٥ ــ الف ليلة وليلة وسحر السردية العربية – دراسات – اتحاد الكتاب العرب – دمشق – ٢٠٠٠ .

٦ ــ الذئب والخراف المهضومة – دراسات في التناص الابداعي – بغداد – دار الشؤون الثقافية العامة ـ ٢٠٠١.

٧ ــ النهر يجري دائما – نصوص ابداعية فائزة في المسابقة الابداعية لوزارة الثقافة لعام ٢٠٠٠ – مع مجموعة من الادباء ـ بغداد دار الشؤون الثقافية العامة –٢٠٠٠.

٨ ــ تجليات الاسطورة – قصة يوسف بين النص الاسطوري والنص الديني .

٩ ــ أسئلة السرد ـ دراسات في القصة القصيرة والرواية .

١٠ ــ القصص الشعبي العراقي – دراسات وتحليل .

١١ــ الجنس في الرواية العراقية)دراسات صدرت عن دار المتن ــ العراق بغداد ــ طبعة اولى ٢٠١٨ .

الفهرست